مثل الأعمى والأصم والبصير والسميع



الصلاة على رسول الله ﷺ

التوحيد

تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية • العدد ٥٢٤ السنة الخامسة والأربعون • جمادى الآخرة ١٤٣٦ هـ



الكلام

خير الكلام .. وشعب الإيمان

الثمن جنيهان

- مفهوم الأمانة في الإسلام
- العقيقة آداب وأحكام
- التبرير وإلقاء المعاذير

التحرير
٨ شارع قولة عابدين ـ القاهرة
ت:٢٣٩٣٦٥١٧ ـ فاكس: ٢٣٩٣٠٦٦٢
البريد الإلكتروني
MGTAWHEED@HOTMAIL.COM
رئيس التحرير:
GSHATEM@HOTMAIL.COM
قسم التوزيع والاشتراكات
ت:٢٣٩٣٦٥١٧
ISHTRAK.TAWHEED@YAHOO.COM
المركز العام:
هاتف: ٢٣٩١٥٥٧٦-٢٣٩١٥٤٥٦
WWW.ANSARALSONNA.COM

تنويه

إلى الإخوة مشتركي مجلة التوحيد بمصر: برجاء مراجعة مكتب البريد التابع لكم، والاتصال بقسم الاشتراكات في حالة عدم وصول المجلة، والإبلاغ عن اسم مكتب البريد التابع له المشترك؛ للتواصل مع المسئولين في هيئة البريد، وبحث الشكوى؛ لضمان وصول المجلة للمشترك في موعدها
والله الموفق

السلام عليكم

شؤم المعاصي !!

إنما تتنزل رحمات الله تعالى بالطاعة، ويتنزل سخطه بالمعصية، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

- لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.
- وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ.
- وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.
- وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.
- وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ». (رواه ابن ماجه: ٤٠١٩، وصححه الألباني).

فإذا كان نزول البلايا بسبب ذنوب العباد؛ فإنها لا ترتفع إلا بتوبتهم.

فاستجلبوا بركات الله بطاعته، فما عند الله من اليسر والخير والبركة لا يُنال إلا بطاعته.

فاللهم ارفع عنا البلاء والغلاء والفتن.. آمين.

التحرير

رئيس التحرير:
جمال سعد حاتم

مدير التحرير الفني:
حسين عطا القراط

سكرتير التحرير:
مصطفى خليل أبو المعاطي

الإخراج الصحفي:
أحمد رجب محمد
محمد محمود فتحي

في هذا العدد



ثمن النسخة

مصر ٢٠٠ قرش ، السعودية ٦ ريالات ، الإمارات ٦ دراهم ، الكويت ٥٠٠ فلس، المغرب دولار أمريكي ، الأردن ٥٠٠ فلس، قطر٦ ريالات ، عمان نصف ريال عماني ، أمريكا دولاران ، أوروبا ٢ يورو

الاشتراك السنوي

١- في الداخل ٤٠ جنيهاً بحوالة فورية باسم مجلة التوحيد . على مكتب بريد عابدين ، مع إرسال صورة الحوالة الفورية على فاكس مجلة التوحيد ومرفق بها الاسم والعنوان ورقم التليفون.

٢- في الخارج ٢٥ دولاراً أو ١٠٠ ريال سعودى أو مايعادلهما.

ترسل القيمة بسويفت أو بحوالة بنكية أو شيك على بنك فيصل الإسلامي فرع القاهرة . باسم مجلة التوحيد . أنصار السنة حساب رقم / ١٩١٥٩٠

٨٥٠ جنيه ثمن الكرتونة للأفراد والهيئات والمؤسسات داخل مصر و٣٠٠ دولاراً خارج مصر شاملة سعر الشحن .

منفذ البيع الوحيد بمقر مجلة التوحيد الدور السابع

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

موانع تكفير المعين

الحلقة الثالثة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعدُ:

فقد ذكرت في اللقاء الماضي ثلاثة من موانع التكفير، وبقي نوع رابع وهو آخرها أتحدث عنه في هذا اللقاء، ألا وهو التأويل، فأقول وبالله التوفيق:

التأويل له معان صحيحة ومعان باطلة، فمن الصحيح أنه يأتي بمعنى التفسير، وهذا ما عناه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في كتاب له بعنوان: الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه، أي: فسروه على غير تفسيره، وقد استعمل المفسرون كلمة التأويل بهذا المعنى، فهذا الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله يستعمل كلمة التأويل ويعني بها التفسير والبيان، فيقول مثلاً عند سياق تفسيره للآية: القول في تأويل قول الله تعالى، ثم يذكر الآية، وكأن يقول: وتأويل الآية عندنا: ثم يشرع في تفسيرها، كما وردت كلمة التأويل في القرآن الكريم بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ» (الأعراف:٥٢-٥٣)، قال ابن جرير في معنى كلمة التأويل الواردة في الآية: «هل ينتظر هؤلاء المشركون الذين يكذبون بآيات الله ويجحدون لقاءه إلا تأويله، يقول: إلا ما يؤول إليه أمرهم من ورودهم على عذاب الله وصليهم جحيمه». ثم ذكر عن قتادة أنه قال: تأويله، يعني: عاقبته. (انظر: تفسير الطبري ١٤٥/٨).

وقال ابن القيم بعد سياقه للآية: «فمجيء تأويله مجيء نفس ما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر والمعاد وتفاصيله والجنة والنار، ويسمى تعبير الرؤيا تأويلاً بالاعتبارين، فإنه تفسير لها وهو عاقبتها وما تؤول إليه». (الصواعق المرسلة ١٧٦/١).

وأما المعاني الباطلة للتأويل فهو مثل ما ذهب إليه الجهمية والمعتزلة وغيرهم من صرف النصوص عن ظاهرها المراد إلى معان أُخَر لا يدل اللفظ عليها، ومنه ما ذهبت إليه الباطنية بفرقها المختلفة، حيث أولوا الشريعة بتأويلات تؤدي إلى بطلان

الشريعة، ومن أراد الوقوف على شيء من ذلك فليراجع كتاب: بيان مذهب الباطنة وبطلانه لمحمد بن الحسن الديلمي.

وهذا التأويل يأثم صاحبه ولا يعذر، وهذا النوع من التأويل لا أقصده ولا أعنيه هنا، وإنما أعني التأويل الذي يعذر صاحبه عند الوقوع فيه، وهو الشخص المؤمن الصادق المسلم لنصوص الوحيين، ولكنه عرضت له شبهة في فهم النصوص فخالف بسببها الصواب والحق، ومن أمثلة ذلك ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه يقول: «جاء بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر برني- نوع من التمر- فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «من أين هذا؟» قال بلال: كان عندي تمر رديء، فبعت منه صاعين بصاع لنطعم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك: أوَّه أوَّه، عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري، فبع التمر ببيع آخر، ثم اشتريه". (البخاري: ٢٣١٢).

فبلال رضي الله عنه ذهب إلى صحة هذا الفعل متأولاً، فعذره النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرتب حكمًا على فعله، وقد وقع في هذا الأمر غيره من الصحابة والتابعين، يقول ابن تيمية رحمه الله: «ثم إن الذين بلغهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الربا في النسيئة». فاستحلوا بيع الصاعين بالصاع يدًا بيد، مثل: ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه: أبي الشعثاء، وعطاء، وطاووس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وغيرهم من أعيان المكيين الذين هم صفوة الأمة علمًا وعملاً، لا يحل المسلم أن يعتقد أن أحدًا منهم بعينه، أو من قلده بحيث يجوز تقليده تبلغهم لعنة آكل الربا، لأنهم فعلوا ذلك متأولين تأويلاً سائغًا في الجملة». (مجموع الفتاوى ٢٠/٢٦٣).

ومن الأدلة أيضًا على عذر من تأول تأويلاً سائغًا فأخطأ ما أخرجه البخاري عن سالم عن أبيه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يومٌ أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره حتى قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم- فذكرناه، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه، فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين». (البخاري: ٤٣٣٩).

فقتل خالد للأسرى كان بسبب تأويل منه حيث لم يفهم من قولهم: صبأنا، أسلمنا، ويلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم تبرأ من فعل خالد، ولم يتبرأ منه ذاته، لأنه كان متأولاً مجتهدًا، قال ابن حجر في معنى قول ابن عمر في الحديث: «فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا».

هذا من ابن عمر راوي الحديث يدل على أنه فهم أنهم أرادوا الإسلام حقيقة، ويؤيده فهمه أن قريشًا كانوا يقولون لكل من أسلم صبأ، حتى اشتهرت هذه اللفظة وصاروا يطلقونها في مقام الذم، ومن ثم لما أسلم ثمامة بن أثال، وقدم مكة معتمرًا، قالوا له: صبأت؟ قال: لا، بل أسلمت، فلما اشتهرت هذه اللفظة بينهم في موضع أسلمت استعملها هؤلاء، وأما خالد فحمل هذه اللفظة على ظاهرها، لأن قولهم: صبأنا، أي: خرجنا من دين إلى دين، ولم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام، وقال الخطابي: يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين فقتلهم متأولاً. (فتح الباري: ٨/٥٧).

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أمثلة كثيرة لهذا النوع وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعضها في عهد الصحابة، وعذر النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام من وقع في شيء من ذلك متأولاً، وفي هذا يقول: «.. ولهذا لم يعاقب النبي صلى الله عليه وسلم من أكل من أصحابه حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود، لأنهم أخطؤوا في التأويل، ولم يعاقب أسامة بن زيد لما قتل الرجل الذي قال: لا إله إلا الله، لأنه ظن جواز قتله، لما اعتقد أنه قالها تعوذًا، وكذلك خالد بن الوليد لما قتل بني جذيمة لما قالوا صبأنا، لم يعاقبه لتأويله». (منهاج السنة ٦/٨٨، ٨٩).

كما ذكر ابن تيمية أن المبتدعة أطلقوا ألفاظ التكفير والتفسيق على المخطئين والمتأولين، وفي

ذلك يقول: «إن المتأول الذي قصده متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكفر، بل ولا يفسق إذا اجتهد فأخطأ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية، وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفر المخطئين فيها، وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن أحد من أئمة المسلمين، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع، الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم، كالخوارج والمعتزلة والجهمية، ووقع ذلك في كثير من أتباع الأئمة، كبعض أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم». (المرجع السابق ٥/٢٣٩-٢٤٠).

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله أن الصحابة والتابعين أجمعوا على عدم تكفير أهل القبلة المتأولين، ونص كلامه:

«إن المتأولين من أهل القبلة الذين ضلوا وأخطؤوا في فهم ما جاء في الكتاب والسنة، مع إيمانهم بالرسول واعتقادهم صدقه في كل ما قال، وأن ما قاله كان حقاً والتزموا ذلك، لكنهم أخطؤوا في بعض المسائل الخبرية أو العملية، فهؤلاء قد دل الكتاب والسنة على عدم خروجهم من الدين، وعدم الحكم لهم بأحكام الكافرين، وأجمع الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن بعدهم من أئمة السلف على ذلك». (الإرشاد إلى معرفة الأحكام، ص٢٠٧).

وما سبق ذكره من تقريرات لا ينطبق إلا على التأويل السائغ الصادر من المؤمن المصدق المسلم للنصوص، من بني دينه على أصول فاسدة، وذهب ليطوع الحق بالرأي والتأويل ليكون تابعًا موافقًا لهواه، فهذا عين الضلال، ولا يدخلون معنا في هذا الباب، وهذا كمن يشتمل تأويله على تكذيب ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، أو جحود أصول لا يقوم الدين إلا بها، كتأويلات الباطنية والفلاسفة ودعاة الحلول والاتحاد ونحوهم، فهؤلاء لا عذر لهم؛ وذلك لأن هذه التأويلات تصادم صراحة المعلوم من الدين بالضرورة من دين الإسلام. وبعضها يؤدي إلى إنكار اليوم الآخر وما فيه من حشر الأجساد وقيام العباد لرب العالمين.

ومنها ما يفضي إلى تعطيل الأحكام العملية، كتأويل الفرائض والأحكام بما يخرجها عن حقيقتها الشرعية، وبما يستبيحون معه ترك الفرائض واستحلال المحرمات، والوقوع في الإباحية المطلقة، حيث ذهبوا إلى سقوط التكاليف عن بعضهم، وإباحة المحرمات لهم.

قال ملا علي القاري: «وأما من يؤول النصوص الواردة في حشر الأجساد وحدوث العالم، وعلم الباري بالجزئيات، فإنه كفر، لما علم قطعاً من الدين أنها على ظواهرها». (شرح الفقه الأكبر/٦٩).

وقال ابن الوزير: «وكذلك لا خلاف في كفر من جحد ذلك المعلوم بالضرورة للجميع وتستر باسم التأويل فيما لا يمكن تأويله كالملاحدة في تأويل جميع الأسماء الحسنى، بل جميع القرآن والشرائع والمعاد الأخروي من البعث والقيامة والجنة والنار». (إيثار الحق على الخلق ص٣٧٧).

وقد ذكر محمد رشيد رضا رحمه الله أن أئمة الباطنية زنادقة، لأنهم تعمدوا هدم الإسلام بالشبهات والتأويلات المشككات. (انظر تفسيره ٤٧١/٦).

ويظهر مما سبق تقريره في الحلقات السابقة وما ذكرته هنا ضرورة الاحتياط والتأني عند إطلاق الأحكام على الخلق، وأن أهل السنة والجماعة لا يكفرون ولا يفسقون إلا بعد قيام الحجة، وذلك بتوفر العلم وانتفاء الجهل، والمقصود من ذلك التحقق من أهلية المكلف وصلاحيته الشرعية لإجراء الأحكام عليه، ويعبر أهل العلم عن ذلك بعبارة معلومة عندهم وهي: ضرورة تحقق الشروط وانتفاء الموانع قبل إجراء الأحكام على المكلفين.

وخلاصة مذهبهم في ذلك كما ذكره ابن تيمية: أن المقالة التي هي كفر بالكتاب والسنة والإجماع يقال عنها: هي كفر، ولا يجب أن يحكم في كل شخص قال ذلك بأنه كافر، حتى يثبت في حقه شروط التكفير وتنتفي موانعه. (انظر: مجموع الفتاوى ١٦٥/٣٥).

وقد أشبعت القول فيما مضى في بيان ذلك وتقريره، ثم إنه يجب أن يعلم أن التكفير حكم شرعي، فلا يجوز إطلاقه على مسلم إلا بدليل شرعي، ولا يجوز أن يتصدى لذلك إلا الراسخون في العلم من الأئمة الكبار الذين أوصى الله في كتابه بالرجوع إليهم، كما قال تعالى: «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (النحل:٤٣)، وقال تعالى: «وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا» (النساء:٨٣)،

فقد أمر الله في الآيتين بالرجوع إلى أهل العلم وسؤالهم والاستفادة منهم.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ، والصدق فيه لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق، فيكون عالمًا بما يبلغ، صادقًا فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مرضيَّ السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأصوله، وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله، ولا يجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسماوات». (إعلام الموقعين ١/١٠).

قلت: رحم الله هذا الإمام العلم، وأين المتعالمون الأصاغر منه، وقد تكلموا وخاضوا في دماء المسلمين وأعراضهم دون علم، وهذا من أمارات الساعة، وقد أخرج ابن المبارك في الزهد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر». (وحسنه الألباني، وذكر ابن المبارك أنه قال: «الأصاغر: أهل البدع». السلسلة الصحيحة ٢/٣١٦).

ولهذا وجب على من لا علم عنده أن يلزم غرزه وأن يقف عند حده استجابة لقول الله تعالى: « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا » (الإسراء:٣٦).

قال الشنقيطي رحمه الله في معنى هذه الآية: «نهى جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن اتباع الإنسان ما ليس له به علم. ويشمل ذلك قوله: رأيت ولم ير، وسمعت ولم يسمع، وعلمت ولم يعلم. ويدخل فيه كل قول بلا علم. وأن يعمل الإنسان بما لا يعلم. وقد أشار جل وعلا إلى هذا المعنى في آيات أخر؛ كقوله: « إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (البقرة: ١٦٩)، وقوله:« قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (الأعراف: ٣٣)، وقوله: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ » (الحجرات: ١٢)». (أضواء البيان: ٣/٥٧٦، ٥٧٧).

وهذا الكلام ينطبق أول ما ينطبق على مسائل أصول الدين، ومنها قضية الإيمان والكفر التي يترتبت على من يخوض فيها أحكام كبيرة تلحق المحكوم عليه في الدنيا والآخرة، كاعتقاد ردته وخروجه من دين، وإباحة دمه، وعدم الصلاة عليه والدعاء له، وأما في الآخرة فالحكم عليه بأنه خالد مخلد في النيران، ولا تنفعه شفاعة الشافعين.

وقد لمسنا في الآونة الأخيرة آثار خطيرة ترتبت على تكفير الأفراد والمجتمعات على رأسها التفجيرات التي يقوم بها الآثمون هنا وهناك والتي أزهقت أرواح شيوخ ونساء وأطفال، وضيعت كثيرًا من الأموال، وأفسدت كثيرًا من المنشآت والمؤسسات العامة والخاصة، كما زعزعت أمن البلاد واستقرارها، وأثارت الرعب بين الكبير والصغير، كما نالت عدداً من غير المسلمين في بلادهم، وعدداً ممن لهم عهد وأمان من ولي أمر المسلمين، أو من أهل البلاد الأصليين في بلاد المسلمين، وهذه الأعمال التخريبية كانت سبباً في تشويه صورة الإسلام وأهله عند أعدائه، وصور هؤلاء الأعداء المسلمين على أنهم ذئاب بشرية سفاكون للدماء، وغير ذلك.

وكان لوسائل الإعلام الفاسدة دور كبير في الطعن على ثوابت الدين وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، والإسلام بصورته الصحيحة بريء من هؤلاء ومن أعمالهم، وأرى أنه من الواجب عليَّ أن أوجه نداء لشباب الأمة الإسلامية بأن يبتعدوا عن هذه الأفكار التكفيرية المنحرفة وعن أصحابها، وأن يقاطعوا الكتب التي كانت سببًا في رواج هذه الأفكار، وأن يقبلوا على علماء أهل السنة والجماعة السائرين على منهاج الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وعلى الشباب وأولياء أمورهم الحذر واليقظة من التحاقهم بهذه التنظيمات التي تزعم أنها جهادية وحقيقة أمرها إنها تخريبية دموية خارجة عن السمع والطاعة مفسدة للبلاد والعباد والواقع المعاصرين يؤيد ذلك.

واني في الختام أشكر الله على توفيقه وعونه في كتابة هذه المقالات، كما أشكر من راسلوني أو اتصلوا بي، وأسأل الله تعالى للجميع التوفيق والسداد، والهداية والصلاح، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



المصلحون والمفسدون

بقلم:
الشيخ صفوت الشوادفي
رحمه الله

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

فإن الله عز وجل قد أوجب على عباده أن يتدبروا كتابه فقال: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (النساء: ٨٢).

وإننا- نحن المسلمين- نقرأ القرآن في بيوتنا، وفي صلاتنا وفي غير ذلك، ولكن ليس كل من قرأ تدبر، وليس كل من علم تفقه! وبغير التدبر والفقه لا يمكننا أن نفهم عن الله مراده.

والعقل آلة الفهم، وفي حديث القرآن عن الذين يعقلون، والذين لا يعقلون نجد ميزانًا يختلف عن ميزان البشر.

فالعقلاء- بمقياس البشر- هم الذين يملكون نعمة العقل، وغير العقلاء- بنفس المقياس- هم المجانين الذين حُرموا نعمة العقل، وأما القرآن فإنه يثبت العقل لمن يفهمون عن الله مراده، ويدركون الغاية التي خلقوا من أجلها، فيدفعهم ذلك إلى الإيمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. وأما الذين لا يعقلون- في ميزان القرآن- فهم ليسوا مجانين ولكن لهم قلوب (عقول) لا يفقهون بها (أي معرضة عن الحق) ولهم آذان ولكنها لا تسمع! ولهم أعين ولكنها لا تبصر! فهؤلاء هم الذين نفى الله عنهم العقل في كتابه.

والذين يعقلون هو المؤمنون، وهم الذين يصلحون في الأرض، ولا يفسدون، وغيرهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.

والناظر إلى واقع الناس يرى أن بعضهم يصلح، وبعضهم يفسد، بعضهم يبني، وبعضهم يهدم، بعض الناس يدعو إلى الخير ويسعى إليه، وبعض الناس يدعو إلى الشر ويسارع فيه!

البعض يدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق، وآخرون يدعون إلى الرذيلة وإشاعة الفاحشة.

وفي البداية الأولى للإنسان قال الله عز وجل للملائكة: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» ولأمر ما أنطق الله ملائكته بهذا السؤال «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ..» (البقرة: ٣٠).

ويشاء الله أن تكون أول معصية على الأرض بين بني آدم هي سفك الدماء عندما قتل ابن آدم الأول أخاه، والقصة مبسوطة في سورة المائدة «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ»

(المائدة : ٢٧)، وفي حديث القرآن عن المفسدين يضرب أمثلة متباينة، ويذكر نماذج متفاوتة.

فالإفساد في الأرض قد يحدث من الأغنياء والتجار وأصحاب الأموال، ويعبر القرآن عن ذلك في حديثه عن قارون.

وقد يكون الفساد في قرية أو مدينة، وقد ذكر القرآن لها أمثلة كثيرة منها قرية لوط، وقرية سبأ.

وقد ينتشر الفساد والإفساد في شعب بأكمله كما هو شأن يأجوج ومأجوج «قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» (الكهف: ٨٦)، الآيات.

إن هذا السد الذي بناه ذو القرنين بين المصلحين والمفسدين نحتاج إلى أمثاله في حياتنا.

ويذكر القرآن لنا نموذجًا آخر للشعوب المفسدة هم اليهود. وهم شرار الخلق عند الله، وأئمة المفسدين، ولذلك وصفهم القرآن بالإصرار والتكرار «كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ»، وهم لا يفسدون فقط وإنما «وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا» (المائدة: ٦٤).

وفي كتاب الله تنبيه على قضيتين مهمتين:

الأولى: إشاعة الفاحشة وهي صورة خطيرة من صور الإفساد وأسلوب خبيث من أساليب المفسدين في الأرض يعبر القرآن عنه في قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (النور: ١٩).

وقد جاء هذا الوعيد الشديد شاملاً من يفعلون الفاحشة، ومن يهيئون لها الأسباب والذين ينشرون أو يتناقلون أخبارها أو يتلذذون بذكرها، أو يفرحون بانتشارها، أو يرضون بذلك، فكل هؤلاء يحبون أن تشيع الفاحشة. من أجل هذا عبر القرآن عنهم بلفظ (يحبون) وليس بلفظ (يفعلون).

وأما القضية الثانية التي نبه عليها القرآن الكريم:

ففي قوله تعالى: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (الروم: ٤١)، ونقف خاشعين أمام هذا الإعجاز، فالقرآن يتحدث عن فساد في البر، وفساد في البحر، ويتحدث العلماء عن هذا الفساد فيقولون إنه نزع البركة من الأرزاق والأوقات!! وننظر في واقعنا فنرى البركة قد نزعت فعلاً من أرزاقنا، وأوقاتنا فلم نعد ننتفع بها على الوجه الذي كان عليه الآباء والأجداد والقرون الصالحة!.

> لقد نُزعت البركة فعلاً من أرزاقنا، وأوقاتنا فلم نعد ننتفع بها على الوجه الذي كان عليه الآباء والأجداد والقرون الصالحة

ثم نرجع البصر كرتين فنرى القرآن يرجع ذلك إلى أقوالنا وأفعالنا «بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» فنحن الذين نهدم دنيانا بأيدينا، فتنزل العقوبات الربانية على قوم هذا شأنهم «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»، وليس كل الذين عملوا، وقد تنفع العقوبة فتعيد الناس أو بعضهم إلى الله فيرجعون إليه تائبين ويرجعون عن معاصيه نادمين.

ومع هذا فإن كثيرًا من المسلمين اليوم يعيشون حياة الغفلة عن دينهم وهم لا يشعرون، فهم أداة العدو لهدم الإسلام، وهم وسيلته لتخريب عقيدة المسلمين وتدمير أخلاقهم، فهل يفيق المسلمون من غفلتهم ويهبوا من رقدتهم دفاعًا عن دينهم وعقيدتهم؟!

منكرات أصبحت عادات:

إن السلف الصالح كانوا يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتواصون بالحق والصبر، ويتناصحون، ويخافون على أنفسهم من النفاق!

وكانوا أبعد الناس عن المنكرات والموبقات، يفرون منها فرار الخائف من الأسد، حياتهم طاهرة، وقلوبهم بالإيمان عامرة، أقاموا حياتهم على منهج الله «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ

رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» (الفتح:٢٩).

وهدفهم الأعلى في الحياة الاستعداد للقاء الله! كانوا كما وصفهم الله في كتابه: ينفقون في السراء والضراء، ويكظمون الغيظ، ويعفون عن الناس؛ قال جل وعلا عنهم: «يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (آل عمران: ١٣٤).

يستغفرون لذنوبهم ولا يصرون على معصيتهم، تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، يحبون من هاجر إليهم! ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

يحتكمون إلى الشريعة فيما شجر بينهم، ويعفون عمن ظلمهم.

يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون!! خوفهم من الله أبكى قلوبهم فكان لها أزيز كأزيز المرجل!

وخشيتهم لله أسالت دموعهم حتى جفت مآقي العيون، وكادت دموع الخشية أن تكون دمًا! رهبان بالليل فرسان بالنهار.

فأين هم الآن؟ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا؟!

لقد أفضوا إلى ما قدموا، وانتقلوا إلى الرفيق الأعلى ولم يخرجوا من الدنيا إلا وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه!!

ثم نقص الإيمان في القلوب شيئًا فشيئًا حتى ذهب بهاؤه من الوجوه وحلاوته من القلوب.

وأحاطت بنا خطايانا، وأصبحنا نعيش في فتن كقطع الليل المظلم، وكما أن الذي يعيش في الظلمات إذا أخرج يده لم يكد يراها، فكذلك من أظلم قلبه إذا فعل فاحشة أو قارف منكرًا لم يكد يراه! «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» (النور: ٤٠).

ثم طال علينا الأمد فقست قلوبنا وتمردت جوارحنا، وأصبحنا من الذين يحادون الله ورسوله فجعلنا الله في الأذلين! وأصبحت منكرات الأمس هي عادات اليوم!

فما كان منكرًا عند أجدادنا قد أصبح عادة عندنا، والدليل على ذلك أمران:

الأول: أن كل مسلم لو نظر في بيته- وهذا واجب عليه- فسوف يرى أن جانبًا من عادات الأسرة اليومية هو في الأصل من المنكرات.

وثاني الأمرين: أن موقف المسلم من المنكر يختلف شرعًا عن موقفه من العادة، وكلا الأمرين يحتاج إلى مزيد بيان.

> "البعض يدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق وآخرون يدعون إلى الرزيلة وإشاعة الفاحشة."

فأما الأمر الأول وهو انتشار العادات التي أصلها منكرات، فإن هذا أمر واقع في داخل البيت وخارجه ونحن عنه غافلون!

- فالجلوس أمام الأفلام والمسرحيات الساقطة والهابطة من المنكرات والموبقات التي يراها الناس، عادة وتسلية، وترفيهًا! وهل يرى المسلم راحة نفسه، وتخفيف آلام ومتاعب بدنه في معصية ربه؟!

- واختلاط الضيوف بأهل البيت والزيارات العائلية المختلطة بين النساء والرجال من أشد المنكرات الظاهرة، ومع هذا تراها بعض الأسر المسلمة عادة من العادات.

- وما يتخلل هذه الزيارات من مصافحة بين النساء والرجال هو أيضًا من المنكرات الظاهرة التي اعتادها الناس في حياتهم!

- ومجالس الغيبة والنميمة- خاصة بين النساء- لا يتناهى عنها المسلمون في مجالسهم، وقد عدها العلماء من الكبائر!

- وفي كل صباح يخرج كثير من الزوجات والبنات إلى الشوارع متبرجات، والأزواج والآباء يقرُّون لهذا المنكر، بل إنهم يشجعون عليه بدفع أموالهم لشرائه، وقد قال الله لهم: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ» (النساء:٥)، وقد يجبرون عليه بالنهي عن الحجاب الذي أمر الله به!

- والتدخين في البيوت وخارجها قد أصبح أمرًا واقعًا، وقد ينسى المدخن صلاته وقراءته لكتاب

ربه، ولكنه لا ينسى التدخين في الأوقات التي اعتادها، فهو ينظم الأوقات التي يفعل فيها المنكرات!

- ومن أعظم العادات خطرًا، وأشدها ضررًا: الجهل بأحكام الدين ومسائله، فإن الجاهل كالأعمى؛ ولهذا ترى الرجل الجاهل والمرأة الجاهلة، يقضي كل منهما وقته في اللهو والعبث والوقوف أمام المرآة، ليجمل نفسه القبيحة، ويخرج على الناس في زينته، وقلبه هواء!!

- وإذا انتقلنا من البيت إلى الشارع فسنجد أن أعظم المنكرات شرًا وانتشارًا: الاختلاط وهو منكر قبيح موجب لسخط الله ومقته وغضبه على هذا المجتمع.

والعجيب أن كل طبقات المجتمع قد رضيت بهذه الفواحش اليومية، وأقرتها حتى أصبحت جزءًا من حياتنا، فالعلماء لم يقوموا بما أوجب الله عليهم من البيان وعدم الكتمان! والمسلمون بعامة لم يتعاونوا تعاونًا صادقًا على حل هذه المشكلات.

- وما يحدث في المؤسسات والشركات ودواوين الحكومة من اختلاط وأقوال فاحشة وكلام ساقط ورشوة مقررة ومكررة! كل ذلك من المنكرات والموبقات التي يفعلها من يفعلها على أنها عادة وأن سلامة القلوب تجعل المعصية طاعة! وخلو الجيوب يجعل الرشوة ضرورة!!

"أحاطت بنا خطايانا، وأصبحنا نعيش في فتن كقطع الليل المظلم، وكما أن الذي يعيش في الظلمات إذا أخرج يده لم يكد يراها، فكذلك من أظلم قلبه إذا فعل فاحشة أو قارف منكرًا لم يكد يراه!"

- وأما الأمر الثاني: وهو موقف المسلم من المنكرات التي يفعلها الناس في البيوت ووسائل المواصلات، أو في الأعمال والوظائف، أو الأفراح والمآتم، فقد بينت الشريعة أن المنكر يجب تغييره مع القدرة، فيغيره المسلم بيده إذا وقع ممن له سلطان عليه، كحاكم ووالد وزوج وقاض ومدير ونحوه، ويغيره بلسانه مع أقرانه ومن لا يخشى منه أذى على نفسه أو ماله أو عرضه، ويغيره بقلبه مع أهل البطش والظلم وكل من يعجز أن يغير منكرهم بلسانه.

ومن صور التغيير التي كان السلف الصالح يحرصون عليها غاية الحرص هجر مجالس المعصية امتثالاً لقوله تعالى: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ» (النساء: ١٤٠).

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من السلف إذا دعي إلى وليمة عرس ونحوها أجاب الدعوة، فإذا رأى منكرًا لا يقدر على تغييره رجع ولم يشارك، وأسقط حق صاحب الدعوة؛ لأجل هذا المنكر، ونحن- اليوم- نجامل أصحاب المنكرات ونرضيهم بسخط الله!

ولك أن تتصور أيها القارئ الكريم ماذا يفعل صاحب الوليمة لو رأى الناس قد هجروه وقاطعوه لأجل منكره، وصاحب السرادقات الفخمة في المآتم وقد هجره الناس لأجل بدعته، والمجلات الخليعة والمحاربة للإسلام وقد هجرها المسلمون لما فيها من منكر القول وقبيح الأخلاق؟!

وقس ما تركناه على ما ذكرناه، فسترى أنك أنت من أهم أسباب انتشار المنكرات عندما تكون مشاركًا أو راضيًا أو ساكتًا! وبإمكانك أن تكون سببًا في إزالتها عندما تنصح أهلها أو تهجرهم. وعندها تكون ممن يقتدي بسلفه الصالح ويأتسي.

إننا بحاجة إلى إخلاص يكون لنا إمامًا، وإلى غيرة تحرك فينا الهمم وإلى عزيمة تحيي موات قلوبنا وإلى علم يزيدنا من الله قربًا وإلى عمل صالح نلقى به ربنا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

باب التفسير

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

الحلقة الأولى

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: « حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ » (الجاثية: ١ - ٥).

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

بَيْنَ يَدَي السُّورَة:

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، شَأْنُهَا شَأْنُ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ فِي الاهْتِمَامِ بِتَرْسِيخِ الْعَقِيدَةِ، وَبَيَانِ أُصُولِ الدِّينِ وَأَرْكَانِ الإِيمَانِ.

وَقَدْ رَكَّزَتْ عَلَى الأُصُولِ الثَّلاثَةِ: التَّوْحِيدُ، وَالنُّبُوَّةُ، وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ.

وَالْمِحْوَرُ الأَسَاسُ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ هُوَ دَلائِلُ التَّوْحِيدِ فِي الآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ وَالإِنْسَانِيَّةِ. وَسُمِّيَتِ الْجَاثِيَةَ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى فِيهَا: «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً»، وَسُمِّيَتْ سُورَةَ الشَّرِيعَةِ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى فِيهَا: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ»، وَسُمِّيَتْ سُورَةَ الدَّهْرِ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى فِيهَا: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ».

الْقُرْآنُ كَلامُ اللهِ:

«تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»:

«تَنزِيلُ» مَرْفُوعٌ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: هَذَا.

وَقِيلَ: «تَنزِيلُ الْكِتَابِ» مُبْتَدَأٌ، وَخَبَرُهُ «مِنَ اللهِ». (الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٥٦))، و«الْكِتَابِ» الْمُرَادُ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ.

«مِنَ اللهِ»، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَلامُ اللهِ، أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَمُصْطَفَاهُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَلَمْ يَتَقَوَّلْهُ مُحَمَّدٌ مِنْ نَفْسِهِ، كَمَا زَعَمَ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ تَعَالَى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ

وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» (الفرقان: ٤-٦).

وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (يونس: ٣٧-٣٨).

وَقَالَ تَعَالَى: «الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» (السجدة: ١-٣).

وَأَقْسَمَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (الواقعة: ٧٥-٨٠).

وَقَالَ تَعَالَى: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» (الحاقة: ٣٨-٤٧).

فَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى، سَمِعَهُ جِبْرِيلُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَبَلَّغَهُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم، فَقَرَأَهُ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَصْحَابِهِ، وَقَرَأَهُ أَصْحَابُهُ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَهَكَذَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَإِلَى أَنْ يَعُودَ الْقُرْآنُ إِلَى مَنْ أَنْزَلَهُ قُبَيْلَ قِيَامِ الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ وَصَفَ اللهُ نَفْسَهُ بِمَا يَشْهَدُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ فَقَالَ: «مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»، فَكَوْنُهُ عَزِيزًا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ قَادِرًا عَلَى كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ، وَكَوْنُهُ حَكِيمًا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، غَنِيًّا عَنْ كُلِّ الْحَاجَاتِ، وَيَحْصُلُ لَنَا مِنْ مَجْمُوعِ كَوْنِهِ تَعَالَى عَزِيزًا حَكِيمًا كَوْنُهُ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ الْمُمْكِنَاتِ، عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، غَنِيًّا عَنْ كُلِّ الْحَاجَاتِ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ امْتَنَعَ مِنْهُ صُدُورُ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ ظُهُورُ الْمُعْجِزِ دَلِيلًا عَلَى الصِّدْقِ، فَهَذِهِ فَائِدَةُ وَصْفِ اللهِ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ بِكَوْنِهِ عَزِيزًا حَكِيمًا. (التفسير الكبير ٢٧/٢٥٨) بتصرف).

دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ الْعَقْلِيَّةِ:

«إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»:

ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ -مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ- مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَهَذَا السِّيَاقُ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» (الذاريات: ٢٠-٢١).

«إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ» نَفْسِهَا، وَارْتِفَاعِهَا، «وَالْأَرْضِ» نَفْسِهَا، وَوَضْعِهَا. وَقِيلَ فِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ صَرَّحَ بِهِ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ فِي مَوَاضِعَ، وَهُوَ «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

فَالسَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ بِذَاتِهِمَا دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِمَا وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَفِي خَلْقِ السَّمَاءِ عَلَى هَذَا الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ، وَهَذِهِ الْقُوَّةِ وَهَذَا الْإِحْكَامِ، وَفِي خَلْقِ الْأَرْضِ عَلَى هَذِهِ السَّعَةِ وَعَلَى هَذِهِ الْأَلْوَانِ: السَّبْخَةِ، وَالصَّلْبَةِ، وَالرَّمْلِيَّةِ، وَالطِّينِيَّةِ، «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ»: خَصَّهُمْ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِالْآيَاتِ الَّتِي رَأَوْهَا، وَاسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى وَحْدَانِيَّةِ خَالِقِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (آل عمران: ١٩١).

أَمَّا غَيْرُهُمْ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: «وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» (يوسف: ١٠٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَفِي خَلْقِكُمْ» أَيْ «وَفِي خَلْقِكُمْ» أَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ.

فلوْ تأمَّلَ الإنْسانُ في أيِّ عُضْوٍ منْ أعْضائه، وأيِّ جارحةٍ منْ جوارحه، لرأى فيها منَ الآيات الكثير والكثير ممَّا يشْهدُ لله بالوحْدانيَّة، «فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ» (المؤمنون: ١٤)، «ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ» (السجدة: ٧-٩).

وقوْلُه تعالى: «وما يبُثُّ من دابَّة» تدبُّ على وجْه الأرْض، ابْتداءً بالنَّمْلة، وانْتهاءً بالْفيل، ففي هذه الدَّوابِّ دلالةٌ على عظمة الْخالق ووحْدانيَّته، فالله وحْدهُ هُو الَّذي خلقها على اخْتلاف خلْقها، وهُو الَّذي يرْزُقُها أيْنما كانتْ، كما قال تعالى: «وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» (النور: ٤٥)، وقال تعالى: «وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ» (هود: ٦).

ووجْهُ دلالتها على وُجود الإله الْقادر الْمُخْتار أنَّ الأجْسام مُتساويةٌ، فاخْتصاصُ كُلِّ واحدٍ منَ الأعْضاء بكوْنه الْمُعيَّن، وصفته الْمُعيَّنة، وشكْله الْمُعيَّن، لا بُدَّ وأنْ يكُون بتخْصيص الْقادر الْمُخْتار، ويدْخُلُ في هذا الْباب انْتقالُهُ منْ سنٍّ إلى سنٍّ آخر، ومنْ حالٍ إلى حالٍ آخر. (التفسير الكبير (٢٧/٢٥٩و٢٦٠)).

«وفي خلْقكُمْ وما يبُثُّ منْ دابَّةٍ آياتٌ لقوْمٍ يُوقنُون» يعْني: حُججًا وأدلَّةً لقوْمٍ يُوقنُون بحقائق الأشْياء، فيُقرُّون بها، ويعْلمُون صحَّتها. (جامع البيان (٢٥/١٤٠)).

«واخْتلاف اللَّيْل والنَّهار» في الطُّول والْقصر، والنُّور والظَّلام، والْحرِّ والْبرْد، «وما أنْزل اللَّهُ من السَّماء منْ رزْقٍ» يعْني الْمطر لأنَّهُ سببُ الرِّزْق، ولذلك قال: «فأحْيا به الأرْض بعْد موْتها» وأخْرج به نبات كُلِّ شيْءٍ، كما قال تعالى: «هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (النحل: ١١)، وقال تعالى: «فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ» (عبس: ٢٤-٣٢)، وقال تعالى: «وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ (٩) وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ» (ق: ٩-١١).

وقوْلُهُ تعالى: «وتصْريف الرِّياح»: أيْ جنُوبًا وشمالًا، ودبُورًا وصبًا، برِّيَّةً وبحْريَّةً، ليْليَّةً ونهاريَّةً، ومنْها ما هُو للْمطر، ومنْها ما هُو للقاح، ومنْها ما هُو غذاءٌ للأرْواح، ومنْها ما هُو عقيمٌ لا ينْتجُ، في ذلك الْمذْكُور كُلِّه «لآياتٍ لقوْمٍ يعْقلُون».

وقال سُبْحانهُ وتعالى أوَّلًا: لآياتٍ للْمُؤمنين، ثُمَّ يُوقنُون، ثُمَّ يعْقلُون، وهُو ترقٍّ منْ حالٍ شريفٍ إلى ما هُو أشْرفُ منْهُ وأعْلى، وهذه الآياتُ شبيهةٌ بآية الْبقرة وهي قوْلُهُ تعالى: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (البقرة: ١٦٣-١٦٤). (تفسير القرآن العظيم (٤/١٤٧و١٤٨)).

وقال الزَّمخْشريُّ: والْمعْنى أنَّ الْمُنْصفين من الْعباد، إذا نظرُوا في السَّموات والأرْض النَّظر الصَّحيح، علمُوا أنَّها مصْنُوعةٌ، وأنَّهُ لا بُدَّ لها منْ صانعٍ، فآمنُوا بالله وأقرُّوا. فإذا نظرُوا في خلْق أنْفُسهمْ وتنقُّلها منْ حالٍ إلى حالٍ وهيْئةٍ إلى هيْئةٍ، وفي خلْق ما على ظهْر الأرْض منْ صُنُوف الْحيوان، ازْدادُوا إيمانًا وأيْقنُوا وانْتفى عنْهُمُ اللَّبْس. فإذا نظرُوا في سائر الْحوادث الَّتي تتجدَّدُ في كُلِّ وقْتٍ، كاخْتلاف اللَّيْل والنَّهار، ونُزُول الأمْطار، وحياة الأرْض بها بعْد موْتها، وتصْريف الرِّياح جنُوبًا وشمالًا، وقبُولًا ودبُورًا، عقلُوا واسْتحْكم علْمُهُمْ وخلص يقينُهُمْ. (الكشاف (٣/٤٣٦)).

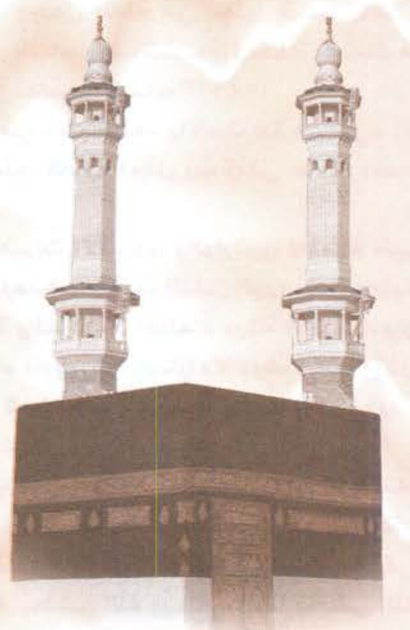
وقال أبُو عبْد الله الرَّازيُّ: وأظُنُّ أنَّ سبب هذا التَّرْتيب أنَّهُ قيل إنْ كُنْتُمْ من الْمُؤمنين فافْهمُوا هذه الدَّلائل، وإنْ كُنْتُمْ لسْتُمْ من الْمُؤمنين بل أنْتُمْ منْ طُلَّاب الْحقِّ والْيقين فافْهمُوا هذه الدَّلائل، وإنْ كُنْتُمْ لسْتُمْ من الْمُؤمنين ولا من الْمُوقنين فلا أقلَّ منْ أنْ تكُونُوا منْ زُمْرة الْعاقلين فاجْتهدُوا في معْرفة هذه الدَّلائل. (التفسير الكبير (٢٧/٢٦٠و٢٦١)).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

منبر الحرمين

العلم .. فضائله وثماره

إعداد/ الشيخ د. عبد المحسن بن محمد القاسم
إمام المسجد النبوي



إن الحمد لله، نحمده ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فاتَّقوا الله- عباد الله- حقَّ التقوى؛ فتقوى الله نورُ البصائر، وبها تحيَا القلوبُ والضمائر.

أيها المسلمون:

عبادة الله وحدَه هي حكمةُ الخلق والأمر، ولأجلها بُعثَت الرُّسُل وأُنزلَت الكتب، وبها شرفُ الخلق وسعادتُهم وفلاحُهم ونجاتُهم، ومنازلُ العباد عند الله بحسب منازلهم فيها، (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: ١٣).

ومن فضل الله وكرمه أن نوَّع العبادات ليُنوِّع لخلقه اللذَّات، ويُعليَ لهم بها الدرجات، وعبادةٌ في الدين عظيمةٌ سابقةٌ لغيرها، ومُصحِّحةٌ لما سواها، الظافرُ بها فائزٌ، والمُفرِّط فيها نادم.

امتدحَ الله أهلَها وفضَّلَهم لأجلها، تهدي العبدَ إلى ربِّه وتُنيرُ له دروبَ حياته، كمالُ الإنسان ونجاتُه مُتوقِّفٌ عليها، وما عُبد الربُّ بمثلها، فبها يُعرفُ ويُعبَدُ ويُذكرُ ويُمجَّد، ويُعلَمُ حقوقُ الخالق والمخلوقين، ويُميَّزُ الحلالُ من الحرام.

تُؤنِسُ صاحبَها في الخلوَة، وتُذكِّرُه عند الغفلة، طلبُها طاعةٌ، وبذلُها قُربةٌ، زينةٌ لأهلها وأمانٌ لأصحابها، تُنيرُ القلوبَ والبصائر، وتُقوِّي الأذهانَ والضمائر، أهلُها للأرض كالنجوم للسماء، فبهم يُقتَدى، وهم

زينةٌ للبريَّة وجمالُها، وحصنُ الأمة ودرعُها، ولولاهم لطُمسَت معالمُ الدين.

بها صلاحُ الأمة ورفعتُها، واستقامةُ النفوس وزكاتُها، وهدايةُ البشريَّة وسعادتُها، وتحصينُ الأجيال وسلامتُها.

الحاجةُ إليها فوقَ كلِّ الحاجات، وبدونها خرابُ العالَم وفسادُه.

قال الإمام أحمد- رحمه الله-: «الناسُ أحوجُ إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليوم مرَّةً أو مرَّتين، والعلمُ يُحتاجُ إليه في كل وقت».

أمَّتُنا أمةُ علم، أولُ آيةٍ أُنزلَت في الحثِّ عليه: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق: ١).

قال ابن كثير- رحمه الله-: «فأولُ شيءٍ نزلَ من القرآن هذه الآياتُ الكريماتُ المُباركاتُ، وهنَّ أولُ رحمةٍ رحمَ الله بها العبادَ، وأولُ نعمةٍ أنعمَ الله بها عليهم».

سمَّى الله ذاتَه بالعليم، ووصفَ نفسَه بالعلم، وتعرَّف إلى خلقه به، فقال: (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ × عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق: ٤، ٥).

والرسالةُ كلُّها علمٌ وعمل، فالعلمُ شطرُها، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى) (التوبة: ٣٣) أي: بالعلم النافع (وَدِينِ الْحَقِّ) أي: بالعمل الصالح.

لا شيءَ أطيَبُ للعبد وأصلَحُ لقلبه من محبَّة الله ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بالعلم، هو الحكمةُ التي يُؤتيها الله من يشاءُ من عباده، قال- سبحانه-: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ) (البقرة: ٢٦٩).

امتنَّ الله على آدم- عليه السلام- وأظهرَ فضلَه على الملائكة بعلم: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: ٣١).

واصطفَى الله- سبحانه- بالعلم أنبياءَه ورُسُلَه ومن شاءَ من خلقه، فبشَّرَت الملائكة امرأةَ إبراهيم بإسحاقَ غُلامٍ عليم.

ويُوسُف- عليه السلام- قال الله عنه: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) (يوسف: ٢٢)، وتحدَّث بنعمة الله قائلاً: (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (يوسف: ٥٥).

ومُوسى- عليه السلام- أكرم بذلك، فقال الله: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) (القصص: ١٤).

وقال عن داود وسليمان- عليهما السلام-: (وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) (الأنبياء: ٧٩).

وذكَّر به عيسى- عليه السلام- فقال: (اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ) (المائدة: ١١٠).

والخضرُ لما فضَّلَه الله بعلم ليس عند غيره، رحلَ إليه نبيٌّ من أولي العزم، (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) (الكهف: ٦٥).

وجنودُ سُليمان- عليه السلام- كان أعلمُهم أقواهم، (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) (النمل: ٤٠).

وعدَّد الله نعَمَه على رسوله- صلى الله عليه وسلم- وجعلَ العلمَ من أجلِّها قدرًا، فقال: (وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ) (النساء: ١١٣).

ولم يأمُره- سبحانه- بالاستزادة من شيءٍ إلا من العلم، فقال: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (طه: ١١٤).

العلمُ ميراثُ الأنبياء، والوارثون لعلمهم خيرُ الخلق بعدَهم، وأقربُ الناس إليهم، قال- عليه الصلاة والسلام-: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثُوا العلم، فمن أخذَ به أخذَ بحظٍّ وافر» (رواه الترمذي).

استشهدَ- سبحانه- أهلَ العلم على ألوهيَّته، فقال: (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) (آل عمران: ١٨).

وبالعلم يُخشَى الله ويُطاع، (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ

مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر: ٢٨).
قال الزُّهريُّ- رحمه الله-: «ما عُبِد الله بمثل العلم».
نَيلُه خيرٌ وفلاح: «من يُرد الله به خيرًا يُفقِّهه في الدين» (متفق عليه).
وخيارُ الناس أعلمُهم، قال- عليه الصلاة والسلام-: «خيارُهم في الجاهليَّة خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا»؛ متفق عليه.
العلمُ ميزانُ تفاوُت الأعمال ودرجاتها، وبه صلاحُ العلم وزكاتها، ولن تصفُو للمرء عقيدتُه ويُحقِّق الإخلاصَ لربِّه إلا بالعلم، قال- سبحانه-: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ) (محمد: ١٩)، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.
وما دامَ العلمُ باقيًا في الأرض فالناسُ في هُدًى، ومن عبَدَ الله بغير علم كان ما يُفسدُ أكثرَ مما يُصلِحُ، وما فشَا الشركُ والبدعةُ إلا لقلَّة العلم والبُعد عن أهله، والضلالُ ثمارُ الجهل، ولذا أمرَنا الله بالاستعاذة من طريق أهل الضلال في كل ركعة من صلاتنا: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) (الفاتحة: ٧).
والله نفَى التسويةَ بين أهل العلم وغيرهم، فلا يستوُون كما لا يستوي الحيُّ والميِّتُ، والأعمَى والبصيرُ، قال- سبحانه-: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) (الزمر: ٩).
بالعلم حياةُ العباد ونورُهم، (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) (الأنعام: ١٢٢).
وحُسنُ السَّمت والفقه في الدين من أخصِّ صفات المُؤمنين، فصُدورُهم مُستنيرةٌ بالعلم: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) (العنكبوت: ٤٩).
وخصَّ الله أهلَ العلم بتعقُّل أمثال القرآن العظيم وإدراك معانيها، (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ) (العنكبوت: ٤٣).
الرحمةُ تغشَى مجالسَ العلم، والسَّكينةُ تتنزَّلُ عليهم، والملائكةُ تحُفُّ أهلَها، «وإن الملائكةَ لتضَعُ أجنحَتَها رِضًا لطالِب العلم» (رواه الترمذي).
قال ابن القيِّم- رحمه الله-: «ولو لم يكُن في العلم إلا القُربُ من ربِّ العالَمين والالتحاقُ بعالَم الملائكة وصُحبةُ الملأ الأعلى، لكفَى به فضلاً وشرفًا، فكيف وعزُّ الدنيا والآخرة منُوطٌ به ومشرُوطٌ بحُصوله».
أهلُ العلم بالله وبأمره ونهيه هم للأمة خيرُ قُدوة، نفعُهم مُتعدٍّ إلى الغير بعد نفع أنفُسهم، ولهذا الكلُّ يُثني عليهم ويدعُو لهم، قال- عليه الصلاة والسلام-: «إن الله وملائكتَه وأهلَ السماوات والأراضين، حتى النَّملة في جُحرها، وحتى الحُوت ليُصلُّون على مُعلِّم الناس الخير» (رواه الترمذي).
السعيُ في تحصيله من العمل في سبيل الله، قال أبو الدرداء- رضي الله عنه-: «من رأى الغُدوَّ والرَّوَاح إلى العلم ليس بجهادٍ فقد نقَصَ في عقله ورأيه».
التنافُسُ فيه محمودٌ، فلا حسَدَ إلا في اثنتَين: مُحسنٍ بعلمه أو ماله، وما عداهُ لا يُغبَطُ أهلُه عليه؛ قال- عليه الصلاة والسلام-: «لا حسدَ إلا في اثنتَين: رجلٍ آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلَكَته في الحقِّ، ورجلٍ آتاه الله حكمةً فهو يقضِي بها ويُعلِّمُها»؛ متفق عليه.
وقد تظاهَرَ الشرعُ والقدرُ أن الجزاءَ من جنس العمل، والعلمُ يدلُّ على الله من أقرَب الطريق إليه؛ فمن سلَكَ طريقَ العلم وصلَ إلى الله وإلى الجنة من أقرب الطُّرق وأسهَلها؛ قال- عليه الصلاة والسلام-: «ومن سلَكَ طريقًا يلتمسُ فيه علمًا سهَّل الله به طريقًا إلى الجنة» (رواه مسلم).
العلمُ الشرعيُّ حصنٌ للأمة من الفتن؛ قال الإمام مالكٌ- رحمه الله-: «إن أقوامًا ابتغَوا العبادةَ وأضاعُوا العلمَ، فخرجوا على أمة محمدٍ- صلى الله عليه وسلم- بأسيافهم،

ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك».

ولعظيم نفعه جاء الأمرُ بإبلاغ ولو شيء منه ونشره في الآفاق؛ قال- عليه الصلاة والسلام-: «بلِّغوا عني ولو آية» (رواه البخاري).

والله أمر بسؤال أهل العلم والرجوع إليهم: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النحل: ٤٣).

ودعا النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- لأهله بالنَّضارة، وهي البهجةُ وحُسن الوجه، والفرحُ، وانشراحُ الصدر، فقال: «نضَّر الله امرأً سمع منَّا شيئًا فبلَّغه كما سمع، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع» (رواه الترمذي).

ودعا النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- لمن يحبُّه أن يكون من أهل العلم، فقال لابن عباس- رضي الله عنهما-: «اللهم فقِّهه في الدين» (رواه البخاري).

بالعلم رفعةُ الدرجات في الحياة وبعد الممات، قال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة: ١١).

قال ابن القيِّم- رحمه الله-: «من علِمَ وعمل وعلَّم فذلك يُدعَى عظيمًا في ملكوت السماء».

ونفعُه يلحَقُ صاحبَه بعد الموت؛ قال- عليه الصلاة والسلام-: «إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عملُه إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفَعُ به، أو ولد صالح يدعُو له» (رواه مسلم).

وأفضلُ العلم وأجلُّه وهو الممدوحُ في النصوص: ما نبعَ من الكتاب والسنَّة، وأعظمُه العلمُ بالله وأسمائه وصفاته، وهو الغايةُ من خلق الله وأمره؛ قال- سبحانه-: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (الطلاق: ١٢).

ويجبُ على كلِّ مسلم السعيُ في تحصيل الفرض من العلم، والذي يُصحِّحُ به توحيدَه وعبادتَه من صلاته وصومه وغيرهما، وأن يبذُل زمنًا من وقته في ذلك، ولا يستثقلُ حلَقَه ومجالسَه، وعلى طالبه تعظيمُ قدره، وسُؤالُ الله النافع منه، مع حُسن الظنِّ به- سبحانه- ومُلازمة التقوى فهي خيرُ عون لنَيله.

وأن تكون نيَّتُه خالصةً لوجه الله، لا يُماري بعلمه السُّفهاء، ولا يُجادلُ به العلماءَ، ومن عملَ بما علمَ أورثَه الله علمَ ما لم يعلَم.

وبعد.. أيها المسلمون:

فقد وعدَ الله أن من طلبَ العلمَ يسَّره له وأعطاه منه ما لم يحتسبه بكرمه- سبحانه-، فقال: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) (العلق: ٣).

وطريقُ العلم سهلٌ يسيرٌ، حفظٌ لكتاب الله العظيم، وشيءٌ من سُنَّة النبي- صلى الله عليه وسلم-، ومُختاراتٌ من مُتون أهل العلم، مع فهم ما تقدَّم والعمل به، ومن زادَ في طلبه زادَت رفعَتُه. وبهذا ينالُ المرءُ رضا الله وأعالي الجِنان. أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة: ١٢٢).

أيها المسلمون:

العلماءُ بالله وبأمره ونهيه من السابقين واللاحقين لا يُذكَرون إلا بالجميل، فحقُّهم على الأمة عظيم، بمحبَّتهم واحترامهم وتوقيرهم والرجوع إليهم والأخذ عنهم، وتعظيمُ أهل العلم من تعظيم الدين؛ فهم حمَلَتُه والمُؤتَمنون عليه، ومن حادَ عن هذا الطريق فقد ضلَّ سواءَ السبيل.

وبُغضُهم ومُعاداتُهم نقصٌ في العقل، وانحرافٌ عن الفطرة، وذاك مُؤذِنٌ بحرب الله وعقوبته؛ قال الله تعالى في الحديث القُدسيِّ: «من عادَى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب» (رواه البخاري).

قال النوويُّ- رحمه الله-: «قال الإمامان أبو حنيفة والشافعيُّ- رحمهما الله-: إن لم يكن العلماءُ أولياءَ الله فليس لله وليٌّ».

اللهم أعزَّ الإسلام والمُسلمين، وأصلح أحوالَ المُسلمين في كل مكان، اللهم رُدَّهم إليك ردًّا جميلاً، اللهم اجعَل ديارَهم ديارَ أمنٍ وأمانٍ يا قوي يا عزيز.

باب السنة

خير الكلام .. وشُعَب الإيمان

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده، وبعدُ:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه" (متفق عليه).

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

تخريج الحديث:

هذا الحديث خرجاه من طرق عن أبي هريرة، وفي بعض ألفاظها "فلا يؤذي جاره"، وفي بعض ألفاظها: "فليحسن قِرَى ضيفه"، وفي بعضها: "فليصل رحِمه"، بدل ذكر الجار، وقد روى هذا الحديثَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم عائشةُ وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وأبو أيوب الأنصاري وابن عباس، وغيرهم من الصحابة.

وقد أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (ح ٦٠١٨)، وفي كتاب الرقاق بَابُ حفْظ اللِّسَانِ (١٠٠/٨).

وأخرجه مسلم رقم (٤٧)، ووضعه النووي في كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف.

وفي سنن أبي داود (٥١٥٤) كتاب الأدب، باب ما جاء في حق الجوار، وفي سنن الترمذي ت شاكر (٢٥٠٠) (أبواب صفة القيامة والرقائق والورع)، وفي السنن الكبرى للنسائي: عزاه المزي في «تحفة الأشراف» (١١٩٥١) إلى النسائي في الرقائق، وفي سنن ابن ماجه في كتاب الأدب باب حق الجوار(٣٦٧٢)، في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧١).

قاعدة: إذا صح الحديث ظهرت عليه دلائل الإعجاز (وقد توفر هذا في حديثنا).

أولا: هذا حديث صحيح بل وفي أعلى درجات الصحة؛ فقد اتفق عليه الشيخان فضلاً عن غيرهما، والحديث إذا صح تجد فيه شيئًا عجيبًا هو من دلائل النبوة وصدقها، وذلك أن الحديث الصحيح تجد فيه أمرين:

١- اشتماله على جميع شرائع الدين على الإجمال ثم إنه يقودك إلى المقصد من الخلق وهو قضية العبودية: فحديثنا يتكلم عن شرائع الدين جميعًا فتجده يتكلم عن (العقائد)، فهو يتكلم عن بعض شعب الإيمان والتي لا يكتمل

الإيمان الواجب إلا بها، فبدأ صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا يؤمن أحدكم......، ثم هو قد تكلم عن (بعض الأحكام)، فتكلم في أحكام الصمت والكلام ومتى يتكلم العبد ومتى يصمت، ثم تكلم في (المعاملات) عندما تناول هذه الشعب الإيمانية الثلاث: (فليقل خيرا أو ليصمت، فليحسن إلى جاره، فليكرم ضيفه)، وهكذا فإن لكلام النبوة نورًا تظهر فيه دلائل الإعجاز وبواعث الإيمان، وكيف لا وهو نور الوحي، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

٢- الأمر الثاني هو أن الحديث إذا صح فإنه يوجز معاني كثيرة بحيث لو ترك العلماء العنان لأنفسهم ما انتهوا من شروحها حتى تمتلئ بها دواوينهم، ولو طبقنا ذلك في حديثنا نجد البخاري يضع الحديث في كتاب الرقاق فهو دافع لترقيق القلب وقربه من خالقه، ووضعه في كتاب الأدب فهو يعلم العبد الأخلاق والآداب، ثم وضعه النووي في كتاب الإيمان في تبويبه على صحيح مسلم، فهو مفيد في باب العقائد ووضعه ابن ماجه في كتاب الفتن فهو مفيد في كفّ اللسان عن الفتنة.... وهذا مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم: (بعثت بجوامع الكلم)، وكل ذلك دليل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم، وأنه لا ينطق عن الهوى.

دخول الأعمال في مسمى الإيمان:

ثانيًا: من أهم الفوائد أيضًا فائدة عقدية تربوية علمية وعظية، وهي مستفادة من قوله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.." إلخ، والسؤال: ما هو المقصود من هذا الاستهلال من النبي المختار بأداة الشرط من؟ هل معنى ذلك أن ما بعدها وهو الإيمان بالله لا يتحقق إلا بتحقق جواب الشرط (الثلاث شعب الإيمانية الواردة في الحديث)؟؟

والجواب: إن المقصود من هذا الحديث لا كما يتسرع البعض فيحكم ظنًا منه أن هذه الأعمال شرط في تحقق أصل الإيمان طالما جاءت بهذا اللفظ الذي يدل على الشرط، ولكن المقصود أن هذه الشعب الإيمانية الثلاث ونظيراتها مما جاءت بها الأحاديث نحو قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره بوائقه)، ونحو قوله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)... المقصود منها جميعا هو **كمال الإيمان الواجب، وليس أصل الإيمان.**

هذا ويتفرع على هذه الفائدة فائدة عقدية أخرى ألا وهي **دخول الأعمال في مسمى الإيمان**، ودليله فضلاً عن هذا الحديث قوله تعالى: «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ» (البقرة: ١٤٣)، والمراد بإيمانكم يعني صلاتكم كما ثبت في حديث البراء وغيره "أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال،..." فأنزل الله «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ»، ومن فقه البخاري رحمه الله أن وضع هذا الحديث في باب: الصلاة من الإيمان.

ومن الأدلة الظاهرة على دخول الأعمال في مسمى الإيمان حديث وفد عبد القيس وفيه: " آمركم بالإيمان بالله وحده "، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: "شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تعطوا الخمس من المغنم) فجعل كل هذه الأعمال مع الشهادة في معنى الإيمان.

وعليه فقد تقرر أن كل الأعمال التي حث عليها الشرع هي من شعب الإيمان، وأن كل هذه الشعب تدخل في مسمى الإيمان.

هذا ولا يفوتنا تلكم المسألة التربوية الخطيرة التي تتفرع على هذه المسألة العلمية التي قررناها من معنى استهلاله صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا يؤمن) والفائدة التربوية هنا ألا يتسرع العبد في الأحكام بل لا يقحم نفسه ابتداء فيما ليس مكلفًا به من أحكام على الآخرين، ومن هنا فنحن نناشد الجميع مذكرين ومنذرين يا أيها المتسرعون في الأحكام ما جعل الله لكم على العباد من سلطان، فلا تظلموا في ذلك أنفسكم فتكلفوها بما لا تطيق بما لم يكلفكم الله به، نقول هذا حتى ولو صح استدلالكم ولم تكونوا من أهل الاختصاص ممن كلفوا قضاء بهذا، فما بالكم وقد جمعتم بين السوءتين؛ أنكم قد جانبكم الصواب في استدلالكم فلستم من أهل الاختصاص، فضلا عن كونكم كلفتم أنفسكم بما لم يجعل الله لكم به سلطانا ولم يعقد لكم به وكالة فرويدا رويدا أيها العباد.

ثالثًا: عناية الإسلام بتقوية أواصر المجتمع:

وهل المجتمع إلا الجار الذي أوصانا به، أو الضيف الذي أمرنا الشارع بالإحسان إليه، أو الرحم الذي أمرنا بصلته بل وأمرنا بالإحسان إلى المجتمع كله حين أمر بحفظ اللسان، ونحن إذ نقف عند هذه الجارحة (جارحة اللسان) فلأن الشارع قد أولاها عناية خاصة فقضى فيها قضاءً شديدًا حيث قال جل ذكره: (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (ق: ١٨)، قال ابن كثير: الآية تفيد العموم، وقال القرطبي في تفسيره:

قال: مجاهد يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه، وقال عكرمة: لا يُكتب إلا ما يؤجر به أو يؤزر عليه، وقيل يكتب عليه كل ما يتكلم به، فإذا كان آخر النهار مُحي عنه ما كان مباحاً نحو انطلق اقعد كل مما لا يتعلق به أجر أو وزر".

هذا وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الجارحة فقال لمعاذ: (وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)، بل وأرشد الشارع إلى أن أكثر النجوى بين الناس لا خير فيها كما قال تعالى: (لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) (النساء: ١١٤).

لذ أسقط علماء السلف أكثر الكلام ودعوا إلى تركه كما نقل أبو إسحاق الفزاري عن إبراهيم بن أدهم قال: "الكلام على أربعة وُجوه: فمن الكلام كلامٌ ترجو منفعته، وتخشى عاقبته (فيه نفع وضرر)، والفضل في هذا: السلامة منه. ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته ولا تخشى عاقبته (لا نفع فيه ولا ضرر)، فأقل ما لك في تركه خفة المؤنة على بدنك ولسانك. ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته ولا تأمن عاقبته (فيه ضرر ولا نفع فيه)، فهذا قد كفي العاقل مؤنته. ومن الكلام كلام ترجو منفعته وتأمن عاقبته (فيه نفع ولا ضرر فيه)، فهذا الذي يجب عليك نشره. قال خلف بن تميم: فقلتُ لأبي إسحاق: أراهُ قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام؟ قال: نعم.

وكما حذر الله تعالى من هذه الجارحة فقد شرفها بأن جعل عبادة الذكر منوطة باللسان، ثم جعل هذه العبادة أفضل العبادات كما قال الله تعالى: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) (العنكبوت: ٤٥)، فذكر الله أكبر من كل شيء.

فسبحان الله! إنسان يعيش ويعلم أن لسانه تحت هذه المراقبة فماذا عساه أن يفعل؟! إن إنسانا في يومياتنا التي نحياها في هذه الأيام وقد دخل مكانا ووجد تحذيرا يقول: احذر فالمكان مراقب أستحلفك الله كيف يتصرف؟ فسبحان من جعل لدى الإنسان رقيبًا عتيدًا!! أبعد هذا يتجرأ على ما يؤاخذ عليه؟!

مَن صمت نجا:

لذا كان فصل الخطاب في هذه القضية ما ذكره صلى الله عليه وسلم، حيث قال: "من صمت نجا". (رواه البخاري)، فكان السلف يميلون إلى الصمت وجعلوها خصلة تُتعلم، قال مورّق العجْلي رحمه الله: "تعلمت الصمتَ في عشر سنين، وما قلتُ شيئًا قط -إذا غضبتُ- أندمُ عليه إذا زال غضبي".

وعزا البيهقي في الشعب لأبي العتاهية في ذلك قولا بليغا:

الصمت زين والسكوت سلامة
فإذا نطقت فلا تكن مكثاراً
فإذا ندمت على سكوتك مرة
فلتندمن على الكلام مراراً

قال أبو حاتم البستي في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص٤٣): "الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق وأقل من يندم إذا سكت".

وعن الأعمش عن إبراهيم قال: كانوا يجلسون فأطولهم سكوتًا أفضلهم في أنفسهم.

وقال فضيل بن عياض رحمه الله: "ما حجٌ، ولا رباطٌ ولا اجتهاد أشد من حبس اللسان، ولو أصبحت يُهمُّك لسانُك أصبحتَ في غمٍّ شديد".

وعن عمر بن عبد العزيز قال: "إذا رأيتم الرجل يُطيل الصمت ويهرب من الناس، فاقتربوا منه؛ فإنه يُلقَّن الحكمة".

وقال عبد الله بن أبي زكريا: "عالجتُ الصمت عشرين سنة، فلم أقدر منه على ما أريد".

وعن مسلم بن زياد قال: "كان عبد الله بن أبي زكريا لا يكاد أن يتكلّم حتى يُسأل، وكان من

أبشَّ الناس وأكثرهم تبسُّمًا".
وقال خارجة بن مصعب: "صحبت ابن عون ثنتي عشرة سنة، فما رأيته تكلّم بكلمة كتبها عليه الكرامُ الكاتبون".
قال محمد بن واسع لمالك بن دينار: "يا أبا يحيى، حفظ اللسان أشدُّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم".
وما أحسن مقولة الإمـام الجليل أبـي محمد عبدالله بن أبي زيد إمام المالكية في زمنه: "جماع آداب الخير يتفرع من أربعة أحاديث:
قول النبي صلى الله عليه وسلم: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت " متفق عليه. وقوله صلى الله عليه وسلم: " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " حديث حسن رواه الترمذي وغيره والمحفوظ أنه مرسل.
وقوله صلى الله عليه وسلم للذي اختصر له الوصية: "لا تغضب". رواه البخاري.
وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". رواه البخاري.
(انظر: منحة العلام للفوزان ج١٠ ص ١٠٤).
ومن أجمل ما قيل في هذا قول الشافعي الإمام:

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى
وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ
فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك معايبا
فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى
وفارق ولكن بالتي هي أحسن

رابعا: الإسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق:

هذا ويتفرع على الفائدة السابقه فائدة دعوية عظيمة وهي أن الإسلام جاء ليدعو الناس إلى القيم، ويحفز الناس على تمام مكارم الأخلاق، (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقد أخطأ فئام من الناس نهلوا من ثقافات غير المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم وأعجبوا بهم أخطأوا، عندما ظنوا أن الأخلاق هي عند هؤلاء تتعلم منهم.
يا قوم: إن نبينا الذي، جاء بالعقائد والأحكام والمعاملات جميعا، قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، فجعل آية النجاح في كل هذه المناحي والشعب، وثمرته هو ما يظهر على العبد من مكارم الأخلاق بمفهوم الشرع لا بمفهوم آخر مخالف للشرع مهما تظاهر هذا المفهوم الآخر وتسمى بمسميات خداعة يزعم فيها أن ما يفعلونه هو الأخلاق، إذن فالأخلاق هي ما قررته الشريعة أنه أخلاق، وديننا هو الدين الحق الخاتم الذي جاء لتمام مكارم الأخلاق، وهذه عقيدة بالنسبة لنا.
وعليه فإنه لا داعي أبدا لهذه الهزيمة النفسية والانحراف السلوكي الذي قاد فئامًا من الناس إلى تبني ثقافات وعادات ومناهج وسلوكيات بعضها حق وبعضها باطل بزعم أن هذه أخلاق أو رقي أو أي مسمى جديد لا يصلح تسطيره في مقال بحثي وعظي لا داعي لهذا حتى ولو عندهم بعض الحق فيما يقلدون ويقولون إنه أخلاق وما الداعي وعندنا النبع الصافي والشرع الوافي والتراث الكافي والصحيفة البيضاء التي نجد فيها، كامل الأخلاق والقيم.

خامسًا: ديننا يأمر بوحدة المصدر:

وهى فائدة تتفرع على الفائدة السابقة، وإن قضية وحدة المصدر وقصره على ما صح من الشرع حتى لا تضل الأمة قد أرشد إليه الإسلام في غير ما حديث، ويكفينا في الدلالة على ذلك حديث عمر رضي الله عنه حينما كتب صحائف من التوراة فرآها عليه الصلاة والسلام فسأله عنها، فقال: إنه كان له صديق يهودي، وإنه نسخ منه بعض الصحائف من التوراة، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً، وقال: (أمتهوكون أنتم؟! كما تهوكت اليهود والنصارى! والذي نفسي بيده! لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا أن يتبعني) (حسنه الألباني في الارواء برقم ١٥٨٩)، فلا يجوز لأحد أن يكون متبعاً وإماماً، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز للمسلمين أن يأخذوا دينهم، ولا هدايتهم، ولا إرشادهم، ولا أخلاقهم، ولا كل شيء من الأشكال والتصورات والقيم والسلوك عن أي أمة أخرى لأن الله عز وجل أرسل إليهم الهدى كاملاً، واختصهم بالفضل عاماً شاملاً، فليسوا بحاجة إلى هدي آخر، ولا إرشاد قوم آخرين، فقد أخبرهم الله عز وجل بأنه أكمل لهم الدين، وأتم عليهم النعمة، ورضي لهم الإسلام ديناً: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾. (المائدة:٣).

والحمد لله رب العالمين.

درر البحار في تحقيق ضعيف الأحاديث القصار

القسم الثاني

الحلقة (٤٣)

إعداد / علي حشيش

٤٠٤- "الْحَيَاءُ يَمْنَعُ الرِّزْقَ".

الحديث لا يصح: أورده الإمام الصغاني في «الموضوعات» (ح٨٢)، وقال: «موضوع»، ونقله الإمام الشوكاني في «الفوائد» كتاب «المعاملات» (ح٥٤)، وأقره.

٤٠٥- "إِنَّكُمْ لا تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ".

الحديث لا يصح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٢٤/١) من حديث أبي هريرة مرفوعًا وعلته: عبد الله بن سعيد المقبري رواه عن أبيه عن أبي هريرة قال الإمام الذهبي في «الميزان» (٤٣٥٣/٢٩/٢): «واه بمرة»، ونقل عن ابن معين قوله: «ليس بشيء».

وعن الفلاس: «منكر الحديث، متروك»، وعن يحيى بن سعيد: «استبان لي كذبه في مجلس». وعن الدارقطني: «متروك ذاهب»، وأورد هذا الحديث من مناكيره.

٤٠٦- "إنَّ أكثر الناس أمانًا يوم القيامة أكثرهم فكرًا في الدنيا، وأكثر الناس ضحكًا في الآخرة أكثرُهم بكاءً في الدنيا، وأشدُّ الناس فرحًا في الآخرة أطولُهم حزنًا في الدنيا".

الحديث لا يصح: أورده الغزالي في «الإحياء» (٧٦/١) بصيغة الجزم عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال العراقي في «تخريج الإحياء»: «لم أجد له أصلاً». اهـ.

٤٠٧- "مَنْ جَمَعَ بَيْنَ صَلاتَيْنِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ فَقَدْ أَتَى بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْكَبَائِرِ".

الحديث لا يصح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٧٥/١) من حديث حنش عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا، وعلته حنش، ولكن الحاكم قال: «حنش هو ابن قيس ثقة»، فتعقبه الإمام الذهبي في «التلخيص» وقال: «بل تركوه»، وبين ذلك الإمام الذهبي في «الميزان» (٢٠٤٣/٥٤٦/١) قال: حَنَش هو: حسين بن قيس الرحبي الواسطي، أبو يعلى، وقلبه حَنَش، قال أحمد: «متروك»، وقال أبو زرعة وابن معين: «ضعيف»، وقال النسائي: «ليس بثقة»، وقال مرة: «تركوه»، وقال السعدي: «أحاديثه منكرة جدًّا»، وقال الدارقطني: «متروك»، ثم قال الذهبي: ومن مناكيره، وذكر هذا الحديث.

فائدة: هذا بيان لقاعدة جيدة وتطبيق الإمام الذهبي لها في هذا الحديث، هذه القاعدة بينها الحافظ العراقي في «فتح المغيث» (ص١٥١) قال: «إن الجرح مقدم مطلقًا ولو كان المعدلون أكثر، ونقله الخطيب عن جمهور العلماء، وقال ابن الصلاح: إنه الصحيح». اهـ.

ومن حديث حنش أخرجه الترمذي في «السنن» (ح١٨٨)، والطبراني في «الكبير» (ح١١٥٤٠)، وأبو يعلى في «المسند» (ح٢٧٥١).

٤٠٨ - " الدنيا حِلْمٌ، وأهلها مجازون ومعاقبون".

الحديث لا يصح: أورده الغزالي في «الإحياء» (٢١٠/٣) بصيغة الجزم عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال العراقي في «تخريج الإحياء»: «لم أجد له أصلاً». اهـ.

٤٠٩- " من قرأ سورة الرحمن؛ أدّى شكر ما أنعم الله عليه ".

الحديث لا يصح: أخرجه الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» (١٧٦/٩)، والواحدي في تفسيره «الوسيط» (٢١٧/٤) من حديث أُبي بن كعب مرفوعًا، وعلته: سلام بن سليم الطويل أبو أيوب المدائني؛ كذاب، وهارون بن كثير مجهول، وزيد بن سالم عن أبيه نكرة كما قال الحافظ في «اللسان» (٢١٨/٦)، والحديث أورده الزمخشري في تفسيره «الكشاف» (٣٢٦/٤) فالحديث موضوع.

٤١٠- "إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ سَفَرًا فَلْيُسَلِّمْ عَلَى إِخْوَانِه، فَإِنَّهُمْ يَزِيدُونَهُ بِدُعَائِهِمْ إِلَى دُعَائِهِ خَيْرًا ".

الحديث لا يصح: أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٠٢/٣) (ح٢٨٦٣)، وأبو يعلى في «المسند» (٤٢/١٢) (ح٦٦٨٦) عن عمرو بن الحصين قال: حدثنا يحيى بن العلاء الرازي البجلي قال: حدثنا سُهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا، وقال الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن سهيل إلا يحيى، تفرد به عمرو». اهـ.

قلت: وبين علته الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٢١٠/٣) فقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه يحيى بن العلاء البجلي وهو ضعيف». اهـ.

قلت: ولا بد من الوقوف على درجة ضعف يحيى حتى تستبين درجة ضعيف الحديث فقد زلت بسببها أقدام، قال الإمام الذهبي في «الميزان» (٩٥٩١/٣٩٧/٤): قال الدارقطني: «متروك»، وقال أحمد بن حنبل: «كذاب يضع الحديث»، وعلة أخرى: عمرو بن الحصين العقيلي: قال الإمام ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١٢٧٢/٢٢٩/٦): «قال أبي: عمرو بن الحصين ذاهب الحديث ليس بشيء» ثم قال: سئل أبو زرعة عنه عندما امتنع من التحديث عنه فقال: «ليس هو في موضوع من يحدث عنه هو واهي الحديث». اهـ. فالحديث موضوع.

٤١١- "رأسُ التواضع أن يَكرَه أن يُذكَر بالبِرِّ والتقوى".

الحديث لا يصح: أورده الغزالي في «الإحياء» (٢٨٤/٣) بصيغة الجزم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال العراقي في «تخريج الإحياء»: «لم أجد له أصلاً».

٤١٢- "من قرأ سورة النجم أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدَّق بمحمدٍ ومَن جحد به بمكة".

الحديث لا يصح: أخرجه الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» (١٣٤/٩)، والواحدي في تفسيره «الوسيط» (١٩٢/٤) من حديث أبي بن كعب مرفوعًا، وعلته سلام بن سليم الطويل المدائني، كذاب، وهارون بن كثير مجهول، وزيد بن سالم عن أبيه منكرة، والحديث أورده الزمخشري في «الكشاف» (٣٠٦/٤)، فالحديث موضوع.

وقفات مع القصة في كتاب الله

قصة نزول المسيح عليه السلام آخر الزمان

الخطوط العريضة والخلاصة المفيدة

إعداد/ عبدالرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ليكون رحمة للعالمين، وهاديًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فصلاة ربي وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعدُ:

فنحن وإياكم التقينا على صفحات هذه المجلة الغراء قرابة خمسة عشر شهرًا حول قصة نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، حاولنا من خلالها أن نقدِّم الحقائق الناصعة من الكتاب والسنة وعقيدة الحق في عيسى عليه السلام من لحظة ولادته إلى أن رفعه الله إلى السماء حيًّا يُرزق عند ربه، حتى ينزله الله بإذنه إلى الأرض مرة أخرى، حكمًا عدلاً يدعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال وأتباعه من اليهود وغيرهم، ويبقى في الأرض أربعين سنة يعم العدل فيها ويسود الأمن والسلام.

ثم يموت عيسى عليه السلام كما يموت البشر لأنه بشر رسول وليس إلهًا ولا ابن الله، ولا ثالث ثلاثة، ويدفن عيسى في الأرض كما يُدفن جميع الأموات؛ لأن الله سبحانه هو الحي القيوم الذي لا يموت والخلق جميعًا يموتون، وبعد موت عيسى عليه السلام يبقى الناس بعده سبع سنين على الحالة الطيبة التي تركهم عليها ثم يحدث الفساد تدريجيًّا حتى يعبد الناس الشيطان، وتقوم الساعة على شرار الخلق عندئذ، لكن بعد كم من السنين؟ الله أعلم.

وحاولنا أن نربط بين قصة نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان وما يحدث في الواقع الآن، وقد يقول قائل: وما علاقة نزول عيسى في آخر الزمان وما يحدث الآن؟ أجيبه: وهل يحرك العالم اليوم من شرقه إلى غربه إلا قضية نزول عيسى؟ لأنها قضية مرتبطة بأمن إسرائيل وتمددها وتوسعها، وأن تبقى القدس عاصمة أبدية لها، حيث سينزل فيها المسيح ويحكم العالم ألف سنة- كما اتفق اليهود والنصارى- فعملوا على ما اتفقوا عليه وتركوا ما اختلفوا فيه إلى حينه، فما يحدث في منطقتنا العربية وما يحدث من تقارب بين الرافضة والغرب، وما يحدث في العراق وسوريا واليمن، كل ذلك له صلة واضحة بأمن إسرائيل،

وتوسع إسرائيل وبقائها؛ لأن عقيدة القوم تقوم- بحسب زعمهم- على ثلاثة إشارات إلهية حتى يعود المسيح:

الأولى: قيام دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات.

الثانية: إقامة هيكل سليمان والذي يزعمون أنه تحت المسجد الأقصى ويسعى اليهود اليوم لإعادته على أنقاض المسجد الأقصى- لا مكنهم الله من ذلك

.واعلم أخي أن ما ذكرته لك الآن ليس رجمًا بالغيب، ولا توهمًا لنظرية المؤامرة، ولكني قدمت خلال ما سبق الأدلة الدامغة على هذه الحقائق ومن كان له نظر يرى به أو سمع يسمع أو عقل يستوعب يكتشف هذه الحقيقة من خلال ما يقع حوله اليوم ويشاهده بأم عينه ويعقله بعقله، ولكن إذا لم يكن هناك قلب يعقل وبصر يبصر وأذن تسمع فماذا أملك- وللأسف هذا الكثير- ولا حول ولا قوة إلا بالله- ولأهمية هذا الموضوع وخطورته أحاول أن أضع بين يديك الخطوط العريضة والخلاصة المفيدة لما سبق بيانه، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به، ونبدأ بما يلي:

أولاً: حقيقة المسيح كما بينها القرآن وكما يعتقدها المسلمون:

١- المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله وأمه صديقة، قال الله تعالى: «مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ» (المائدة:٧٥)، فالمسيح عليه السلام عبد أنعم الله عليه بالرسالة وأمه صديقة اصطفاها الله وطهَّرها واصطفاها على نساء العالمين، ولم يكونا من الملائكة فضلاً أن يكونا آلهة، والدليل أنهما كانا يأكلان الطعام، ويترتب على أكل الطعام الحاجة إليه والحاجة إلى إخراج الفضلات، وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وحتى الملائكة لا تأكل ولا تشرب، فكيف برب العالمين؟

٢- جعل الله عيسى ابن مريم وأمه آية للعالمين، فجعل سبحانه في ميلاد عيسى آية وفي عنايته سبحانه بأمه آية، وفي حديثه في المهد آية وفي رسالته ودعوته ومعجزاته التي أيده الله بها آية، وفي رفعه إلى السماء آية، وفي نجاته من الصلب والقتل آية، وفي عودته مرة إلى الأرض ومدة بقائه بها ودعوته ثم موته في الأرض والبركات التي تصاحبه وانتصاراته على أعدائه آية.

٣- يعتقد المسلمون اعتقاد الحق أن الله رفع عيسى إليه ونجاه من الصلب والقتل وهو حي يرزق الآن عند ربه في السماء لم يمت حتى ينزل مرة أخرى، وهو مع ذلك ليس إلهًا ولا ابن الإله، وليس جالسًا على يمين الرب كما يعتقد ذلك أهل الباطل.

٤- كما يعتقد المسلمون أن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان لن يكون صاحب رسالة جديدة، بل سيكون حكمًا عدلاً وإمامًا مصلحًا من أئمة المسلمين المصلحين لأن دين الله واحد والأمة واحدة من آدم مرورًا بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ومحمد صلى الله عليه وسلم والذي ختم الله به النبوة والرسالة وبعثه رحمة للعالمين، وقد بلَّغ موسى وعيسى قومهم بذلك وبشروهم بالنبي الخاتم المبعوث آخر الزمان، وهو الذي دعا إبراهيمُ ربه أن يبعثه في الأمة التي هي من ذرية إسماعيل وهي الأمة التي ورثت الكتاب بعد فساد وإفساد بني إسرائيل.

ثانيًا: فساد اليهود وإفسادهم:

١- اليهود هم شياطين الإنس في الأرض جعلوا لأنفسهم مهمة واحدة ذكرها ربنا عز وجل في قوله تعالى: «وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا» (المائدة:٣٣). فعمل اليهود الأساسي هو السعي بالفساد في الأرض، وأعظم هذا الفساد هو إفساد الدين، وإذا فسد دين البشر كان من السهل قيادهم إلى كل فساد.

٢- وقد بدأ اليهود بإفساد التوراة ثم الإنجيل، وحاولوا إفساد دين محمد صلى الله عليه وسلم ألا وهو الإسلام.

٣- إن الله سبحانه وتعالى أهلك القرون الأولى لما ظلموا وخرجوا على دين الله وحاربوا رسل الله، ثم أرسل موسى وعيسى بالبينات ثم أرسل محمدًا وختم به النبوات والرسالات، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (القصص:٤٣)، والقرون الأولى تشمل قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم، ثم أورث بني إسرائيل الكتاب.

٤- وكما بعث الله موسى بعث عيسى وزكريا ويحيى وهارون من قبلهم أرسل إبراهيم وهود وصالحًا ونوحًا ثم محمدًا من بعد الجميع.

٥- قال الله تعالى: «ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (الأنعام:١٥٤، ١٥٥)، فكما طلب الله من عباده اتباع موسى كذلك طلب اتباع محمد الذي أنزل عليه الكتاب الذي وصفه بالمبارك وجعل في اتباعه سبيل الرحمة.

٦- فماذا فعل اليهود؟ حرَّفوا ما جاء به موسى وكفروا بعيسى وحاولوا قتله، واتهموا أمه الصديقة وقتلوا يحيى وزكريا وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وحاولوا قتله مرارًا.

٧- لقد تاجر اليهود بوحي الله واشتروا به ثمنًا قليلاً، فحرفوا دين الله، وحرفوا التوراة والإنجيل، وحاولوا تحريف القرآن، فلم يستطيعوا ولن يستطيعوا ولو اجتمع معهم كل من في الأرض لأن الله سبحانه هو المتكفل بحفظه، وهذا من أعظم الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله وليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه آخر الكتب كما أن محمدًا خاتم الأنبياء.

٨- وكما حرف بولس- شاؤول- اليهودي دين النصارى حاول عبد الله بن سبأ اليهودي أن يحرِّف دين الإسلام، فلم يتمكن إلا أنه استطاع أن يحدث في الإسلام ثلمة وجرحًا عميقًا وشقًا كبيرًا بظهور فرقة الروافض الذين ليس لهم سَعي إلا في هدم الإسلام ونقض عراه وإفساد قواعده، وإن تسموا مسلمين ولكنهم في حقيقة الأمر يريدون إعادة الإمبراطورية الفارسية إلى عهدها الأول على حساب الإسلام والمسلمين من أهل السنة والجماعة.

٩- لقد تلاعب اليهود بدين النصارى تلاعبًا واضحًا وأهم مظهرين لهذا التلاعب هما:

أ- موقف القديس بولس الذي يدعونه بالرسول وهو يهودي اعتنق المسيحية في القرن الأول الميلادي بهدف إفسادها، وقد كان له ما أراد، وكانت أهم تحريفاته:

١- نقل المسيحية من التوحيد إلى الشرك، فجعل المسيح ابن الله.

٢- نقل المسيحية من دين خاص باليهود إلى دين عالمي.

٣- كرَّس عقيدة صلب المسيح تكفيرًا لخطايا البشر.

٤- قال بقيامة عيسى عليه السلام من الأموات وأنه جلس على يمين الرب، (ومما يؤسف له أن هذه المعتقدات صارت هي المسيحية في العالم).

٥- قال: إن جميع أحكام التوراة باتت منسوخة لأنها لعنة، وقال: شريعة موسى كالمؤدب تعدُّ الناس لمجيء المسيح كان الناس بحاجة إليها لشعورهم بالخطيئة، أما وقد جاء المسيح فلا حاجة إلى المؤدب ولذلك بطلت الشريعة وزالت.

ب- أما المظهر الثاني فهو في القرن السادس عشر الميلادي على يد مارتن لوثر الألماني مؤسس البروتستانت، وصحيح لم يكن مارتن لوثر يهوديًا لكنه كان مدفوعًا من اليهود بشدة، وإذا كان بولس قد أبطل شريعة التوراة؛ فإن لوثر على العكس أعلى من شأن التوراة، ودعا إلى التمسك بحرفيتها، ويكفي أن أنقل إليك عبارته التالية ولا أزيد عليها: «إن الروح القدس (يقصد الله) شاءت أن تنزل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم، إن اليهود هم أبناء الرب ونحن الضيوف الغرباء، وعلينا نحن النصارى أن نرضى كالكلاب التي تأكل من فتات مائدة أسيادها».

وبهذا الفكر ظهرت الصهيونية النصرانية قبل اليهودية، واستطاع اليهود أن يمتطوا ظهور النصارى في أوربا وخصوصًا إنجلترا ثم أمريكا التي شبهوا الهجرة إليها بخروج بني إسرائيل الأول مع موسى.

وبعدُ: كنت أود أن أنتهي في هذا التلخيص في هذا المقال، لكن سأضطر إلى لقاء آخر، إن شاء الله تعالى، فإلى ذلك، والله الموفق.

تهنئة واجبة

يسر أسرة تحرير مجلة التوحيد، واللجنة العلمية بالمجلة أن تتقدم بخالص التهاني لأحد أبناء الجماعة، وهو الباحث أحمد صلاح رضوان؛ وذلك بمناسبة حصوله على درجة الماجستير بتقدير «امتياز»، قسم العقيدة والفلسفة، كلية الدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية العالمية، وعنوان رسالته: «جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر ودورها في محاربة الغلو».

وقد أشرف على الرسالة: الأستاذ الدكتور عبدالله شاكر، الرئيس العام لأنصار السنة، وأستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية العالمية، وناقشه كلٌّ من:

- أ. د. بدران محمد شلبي العياري، أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر.
- أ. د. أحمد منصور سبالك، أستاذ الفقه وأصوله بجامعة الأزهر، ورئيس الجامعة الإسلامية العالمية.

مثل الأعمى والأصم والبصير والسميع

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن وهو قول الله تعالى: «مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (هود:٢٤)، وقبل أن نتحدث عن التفسير الإجمالي فهناك مدخل ومقدمة للكلام حول هذه الآية وهذا المثل.

فقد أنزل الله تعالى على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام كتابًا عزيزًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فاستمع إليه المؤمنون بآذانهم ووعته قلوبهم، وانشرحت له صدورهم وامتلأت به مشاعرهم، واقشعرت لجلاله أفئدتهم ولانت من خشيته جلودهم فكانوا به على هدى من ربهم ونور.

أما المشركون الذين طمس الله على أبصارهم وبصائرهم، وأهل الكتاب الذين أضلهم الله على علم، وختم على سمعهم وقلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة- أما هؤلاء وأولئك ممن غضب الله عليهم ولعنهم- فهم والمؤمنون على طرفي نقيض لا يجتمعان على خير، ولا يلتقيان على هدى، ولا يشتركان في مصير.

وقد ضرب الله مثلاً بليغًا يبين فيه الفرق بينهما ويكشف عن حال كل منهما فقال جل وعلا في سورة هود: «مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (هود:٢٤). (الأمثال القرآنية دراسة تحليلية، د/محمد بكر إسماعيل ص١٢٩).

المعنى الإجمالي:

قال ابن كثير في تفسيره: لما ذكر الله تعالى الأشقياء ثَنَّى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً، من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنان المشتملة على الغرف العاليات والسُّرر المصفوفات، والقُطوف الدانيات، والفرش المرتفعات والحِسانِ الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون، ولا يهرمون، ولا يمرضون، ولا ينامون ولا يتغوطون، ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون.

ثم ضرب تعالى مثلاً للكافرين والمؤمنين، فقال: «مثل الفريقين»، أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء، والمؤمنين بالسعادة، فأولئك

كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمعُ ما ينتفع به، « وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ » (الأنفال:٢٣).

وأما المؤمنُ: ففطنٌ ذكيٌ لبيبٌ بصيرٌ بالحقِّ يُميزُ بينه وبين الباطل، فيتبعُ الخير ويتركُ الشرَّ للحُجة يفرقُ بينها وبين الشبهة فلا مُروَّج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا. اهـ. (من تفسير ابن كثير بتصرف).

المعنى التفصيلي:

قوله: «مثل» والمثل بالتحريك: الحالة والصفة كما في قوله تعالى: « مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ » (الرعد:٣٥)، أي: حالة الفريقين المشركين والمؤمنين تشبه حال الأعمى الأصم من جهة وحال البصير السميع من الجهة الأخرى، فالكلام تشبيه وليس استعارة لوجود كاف التشبيه وهو أيضًا تشبيه مفرد لا مركب، والفريقان هما المعهودان في الذكر في هذا الكلام، وهما فريق المشركين وفريق المؤمنين، إذ سبق ما يؤذن بهذين الفريقين من قوله: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » (العنكبوت:٦٨)، ثم قوله: « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ » (هود:٢٣).

والفريق: الجماعة التي تفارق، أي: يخالف حالها حال جماعة أخرى في عمل أو نحلة (أي صفة)، وتقدم عند قوله تعالى: « فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » (الأنعام:٨١).

شبه حال فريق الكفار في عدم الانتفاع بالنظر في دلائل وحدانية الله الواضحة من مخلوقاته بحال الأعمى، وشبهوا في عدم الانتفاع بأدلة القرآن بحال من هو أصم.

وشبه حال فريق المؤمنين في ضد ذلك بحال من كان سليم البصر سليم السمع فهو في هدى ويقين. (التحرير والتنوير لابن عاشور: ٦/ ٤٠).

قال ابن القيم في قوله: « مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ » (هود:٢٤) فإنه ذكر الكفار ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون.

ثم ذكر المؤمنين، ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، جعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبُهُ أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه فشبه بمن بَصَرُه أعمى عن رؤية الأشياء، وسمعه أصم عن سماع الأصوات، والفريق الآخر بصيرُ القلب سميعُهُ كبصير العين وسميع الأذن، فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله: « هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا » (هود:٢٤). (إعلام الموقعين ٢/ ٢٧٥).

وقوله: « هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا » (هود:٢٤) أي: هل يستوي هذان الفريقان على اختلاف حالتيهما في أنفسهما عندكم أيها الناس؟ كلا، فإنهما لا يستويان، فكذلك حال الكافر والمؤمن لا يستويان عند الله.

«مثلاً» أي: حالاً وصفة. قال ابن عطية في المحرر الوجيز و«مثلاً» نصب على التمييز، ويجوز أن يكون حالاً.

وقال أبو حيان: والظاهر التمييز، وأنه منقول من الفاعل، وأصله هل يستوي مثلاهما؟ ولم يذكر القرطبي في إعرابه غير التمييز.

قوله: «أفلا تذكرون» أي: أفلا تعتبرون وتتعظون أيها المشركون والملحدون والمنافقون فتتوبون إلى ربكم في هذه الحياة وتستقيمون على ما فيه صلاحكم

وسعادتكم في الدنيا والآخرة إن كانت لكم عقول تعقلون بها وآذان تسمعون بها وأعين تبصرون بها. (تفسير القرآن بالقرآن لأحمد القاسم ٣/١٧٧).

والهمزة في قوله: «أفلا» استفهام وإنكار انتفاء تذكرهم واستمرارهم في ضلالهم. والمقصود تنبيه المشركين لما هم فيه من الضلالة لعلهم يتداركون أمرهم فلذلك فرع عليه بالفاء جملة «أفلا تذكرون».

وقرأ الجمهور «تذكرون» بتشديد الذال وأصله تتذكرون، فقلبت التاء دالاً لقرب مخرجيهما وليتأتى الإدغام تخفيفًا.

وقرأه حفص وحمزة والكسائي- بتخفيف الذال- على حذف إحدى التاءين من أول الفعل. (التحرير والتنوير ٦/٤٣).

من فوائد الآية:

١- أن الداعي إلى عطف صفة (الأصم) على صفة (الأعمى) أنه ملحوظ فيه أن فريق الكفار حالين كل حال منهما جدير بتشبيهه بصفة من تينك الصفتين على حدة، فهم يُشبهون الأعمى في عدم الأهتداء إلي الدلائل التي طريقة ادراكها البصر ويشبهون الأصم في عدم فهم المواعظ النافعة التي طريق فهمها السمع، فهم في حالتين كل حال منهما مشبّه به.

ففي قوله تعالى: «كالأعمى والأصم»، تشبيهان مفرقان، والذي في الآية تشبيه معقولين بمحسوسين، واعتبار كل حال من حالي فريق الكفار لا محيد عنه لأن حصول أحد الحالين كاف في جر الضلال إليهم حال اجتماعهما، إذ المشبه بهما أمر عدمي فهو في قوة المنفي.(التحرير والتنوير).

٢- أن الداعي إلى العطف في صفتي (البصير والسميع) بالنسبة لحال فريق المؤمنين فبخلاف ما قررنا في حال فريق الكافرين لأن حال المؤمنين تشبه حالة مجموع صفتي (البصير السميع)، إذ الاهتداء يحصل بمجموع الصفتين فلو ثبتت إحدى الصفتين وانتفت الأخرى لم يحصل الاهتداء إذ الأمران المشبه بهما أمران وجوديان، فهما في قوة الإثبات فتعين أن الكون الداعي إلى عطف (السميع) على (البصير) في تشبيه فريق المؤمنين هو المزاوجة في العبارة لتكون العبارة عن حال المؤمنين مماثلة للعبارة عن حال الكافرين في سياق الكلام والمزاوجة من محسنات الكلام ومرجعها إلى فصاحته. (المصدر السابق بتصرف). وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إشهار

تم بحمد الله تعالى قيد جمعية أنصار السنة المحمدية فرع كفر أشليم مركز قويسنا محافظة المنوفية؛ طبقًا لأحكام القانون رقم (٨٤) لسنة ٢٠٠٢ تحت إشراف إدارة الجمعيات بمديرية الشئون الاجتماعية برقم (١٩٧٤) بتاريخ ٢٠١٦/١/٢٧م.

إنا لله وإنا إليه راجعون

تحتسب جماعة أنصار السنة المحمدية بمنشأة البكاري بالجيزة اثنين من رجالها الأوائل وهما: الشيخ حافظ رزق حافظ، والشيخ محمد عبود أبو فاطمة، رحمهما الله رحمة واسعة، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا؛ وانا لله وإنا إليه راجعون.

باب العقيدة



قواعد وضوابط الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة

الحلقة الثانية

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فما يزال الحديث متصلاً عن قواعد وضوابط الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

القاعدة الثانية: اشتمال الكتاب والسنة على أصول الدين

(أ) فقه القاعدة:

التقسيم الصحيح لمسائل الدين هو أن نقسمه إلى: خبر وطلب؛ لأن هذا هو الذي ينضبط، وكلا القسمين تدخل فيه الفروع والأصول، وما يكون دليله القطع أو الظن، وما يكفر جاحده أو لا يكفر، وكذا يستدل عليهما بالشرع وبالعقل، وليس العقل خاصًا بأحد القسمين دون الآخر.

قال الإمام ابن تيمية (رحمه الله تبارك تعالى): إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جميع الدين أصوله وفروعه، باطنه وظاهره، علمه وعمله، فإن هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان، وكل من كان أعظم اعتصامًا بهذا الأصل كان أولى بالحق علمًا وعملاً.

(ب) أدلة هذه القاعدة:

أي: أدلة «اشتمال الكتاب والسنة على أصول الدين»

أولاً: القرآن الكريم:

دل القرآن الكريم على هذه القاعدة من وجوه، نذكر طرفًا منها:

أ- بيان شمول الدين واتساعه لكل ما ينفع الناس إجمالاً وتفصيلاً، كما في قوله تعالى: «مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ» (الأنعام: ٣٨)، وقوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ» (النحل: ٨٩).

ب- أن الله عز وجل وصف القرآن الكريم بأنه الحق، وأن الهداية والنجاة معقودة على اتباعه والتزامه؛ تصديقًا

وتحكيمًا، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (الأحزاب: ٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩)، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (المائدة: ١٥، ١٦)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ (التوبة: ١١٥).

فترك العباد من غير هداية وإرشاد يُنافي حكمة الله تعالى في محبّته لذلك؛ لأن الله عز وجل يحب الهداية والرشاد محبة دينية شرعية، وقد أنزل القرآن الكريم وهو يحب أن يلتزم الناس بأحكامه؛ فكيف لا يكون القرآن الكريم إذن مشتملاً على أصول الهداية؟!

ثانيا: السنة النبوية المطهرة:

هناك أكثر من دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن أصول الدين، وعلى أن الكتاب والسنة اشتملا على أصول الدين، نذكر منها:

أ- ما رواه ابن ماجه، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّ النبي (عليه الصلاة والسلام) قال: «وايمُ الله لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلُها ونهارها سواء» قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «صدق والله رسول الله صلى الله عليه وسلم تركنا والله على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء».

ب- ما رواه الإمام أحمد في «مسنده»، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: «لقد تركَنا محمد صلى الله عليه وسلم وما يحرِّك طائر جناحيه في السماء إلا ذكَر لنا منه علمًا».

(جـ) فوائد الالتزام بهذه القاعدة:

الفائدة الأولى: وجوب النظر إلى الشريعة بعين الكمال لا بعين النقصان، واعتبارها اعتبارًا كليًّا في العقائد والعبادات والمعاملات، وعدم الخروج عنها البتة؛ لأن الخروج عنها تيه وضلال، ورمي في عمايا. كيف وقد ثبت كمالها وتمامها؛ فالزائد والمنقِص في جهتها هو المبتدِع بإطلاق، المنحرف عن جادة الصواب، وهذا هو الذي أغفله المبتدعون، فدخل عليهم بسببه الاستدراك على الشرع.

الفائدة الثانية: وجوب النظر في نصوص الكتاب والسنة وكلام السلف لمعرفة مسائل الاعتقاد، وأدلّتها السمعية والعقلية، ومباشرة ذلك بالإيمان والتصديق والاستجابة، والبعد عن استحداث الأمور المبتدَعة وتكلُّف الأدلة العقلية والذوقية لها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وكل من كان أعظم اعتصامًا بهذا الأصل، كان أوْلى بالحق علمًا وعملاً.

الفائدة الثالثة: الاستغناء بالكتاب والسنة عن النظر في الكتب المتقدمة، كالتوراة والزبور، لما أصابها من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان؛ فالقرآن الكريم كتاب مستقل بنفسه، ناسخ لما قبله، لم يُحوج الله تعالى أهله إلى كتاب آخر، كما هو حال أهل الزبور والإنجيل والتوراة والقرآن اشتمل على جميع ما في الكتب الأخرى من المحاسن، وعلى زيادات كثيرة لا توجد فيها، مع ضمان الحفظ، ونزاهة النص عن التحريف؛ ولهذا كان مصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، يقرر ما فيه من الحق، ويبطل ما حُرف منه، وينسخ ما نسخه الله تعالى.

القاعدة الثالثة: رد التنازع إلى الكتاب والسنة:

(أ) فقه القاعدة:

لقد وقع الاختلاف والتنازع في الدين بين هذه الأمة، وقَع أسوة بالأمم قبلها من اليهود والنصارى في أصول الدين وفروعه، وذلك على ما أخبر به الوحي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٠٥). وقال صلى الله عليه وسلم: «تفرَّقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، أو اثنتيْن وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»، وفي رواية: «كلّهم في النار إلا ملّة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي».

والاختلاف المذكور في القرآن الكريم قسمان:

القسم الأول: من جهة مدحه أو ذمه.

القسم الثاني: من جهة ذاته.

القسم الأول: الاختلاف من جهة مدحه أو ذمه: ينقسم إلى نوعين:

الأول: أنه تعالى يذم الطائفتين المختلفتين جميعًا، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (البقرة: ١٧٦)،

وقـال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ» (الأنعام: ١٥٩).

الثـاني: اختـلاف حمد الله تعالى فيه إحـدى الطائفتين وذمّ الأخرى، كما في قوله تعالى: «تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» (البقرة: ٢٥٣). فقوله سبحانه: «وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ» (البقرة: ٢٥٣): حمدٌ لإحدى الطائفتين وهم المؤمنون، وذمّ للأخرى، والاختـلاف الـذي تـذم فيه جميع الطوائف المتنازعة يكون سببه تـارة فساد النية بسبب البغي والحسد، وإرادة العلوّ في الأرض بالفساد ونحوه، كما قال تعالى: «وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ» (البقرة: ٢١٣)، وتارة يكون بسبب جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعون فيه، أو الجهل بدليله أو دلالته.

القسم الثاني: الاختلاف من جهة ذاته:

ينقسم إلى نوعين:

الأول: اختلاف تنوع، وهو على وجوه:

أ- أن يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقًّا مشروعًا، كالاختلاف في القراءات التي اختلف فيها الصحابة، فزجرهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف، وقال: «كلاكما محسن» ومن ذلك أيضًا الاختلاف في صفة الأذان والإقامة والتشهدات وصلاة الخوف، إلى غير ذلك مما شرع جميعه، وقد يقال: إن بعض أنواعه أفضل من بعض.

ب- أن يتفق القولان في المعنى والحكم، ويختلفان في اللفظ والعبارة، كالاختلاف في الحـدود-أي: التعريفات- والتعبير عن المسميات، وتقسيم الأحكام، وغير ذلك.

جـ- أن يكون المعنيان مختلفين لكنهما لا يتنافيان؛ فهذا قول صحيح وهذا قول صحيح، كاختلاف الصحابة في صلاة العصر أثناء سيرهم إلى بني قريظة.

الثاني: اختلاف تضادّ، وهو القولان المتنافيان؛ فالخطب فيه أشد، لتنافي القولين، وقد يكون مع أحد المتنازعين بعض الحق، أو دليل يقتضي حقه؛ فـردُ ذلك من الباطل، كالاختلاف بين المشبِّهة والمعطلة في الصفات، فمع المشبِّهة بعض الحق وهو أصل الإثبات، ومع المعطلة بعض الحق وهو أصل التنزيه، والصواب والنجاة في ضم الحقين والجمع بينهما. وهـذان الـنـوعـان-أي: اختلاف التنوع والتضاد- إنما يكون المخرج منهما بالرد إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبذلك يظهر لنا وللمختلفين ما خفي من الدليل أو الدلالة، ويرتفع التنازع، ويندفع البغي، ويتبين وجه الحق والصواب؛ ثم يطالب المبطل بالإذعان والانقياد.

ب- أدلة هذه القاعدة:

وهـي قـاعـدة: رد التنازع إلـى الله والـى رسوله صلى الله عليه وسلم وأدلة هذه القاعدة أيضًا من القرآن والسنة وإجماع الأمة، وأقوال السلف والعلماء، والنظر الصحيح:

أولاً: القرآن الكريم:

وذلك من وجوه كثيرة، أذكر منها وجهين فقط:

الوجه الأول: وفيه بيان أنّ الوحي إنما نزل لرفع الخلاف، ودفع النزاع بين الناس، في أمر دينهم ومعتقداتهم، فمن ذلك: قوله تعالى: «وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (النحل: ٦٤)، فمن أعظم مقاصد الكتاب رفع الخلاف القائم بين الناس، الأمر الذي يوجب عليهم ردّ ما اختلفوا فيه إليه؛ فهو الفرقان والفيصل، وفيه الهدى والرحمة يجمع شتات القلوب، ويوحّد نوازع الآراء.

الوجه الثاني: أمَر الله تعالى المتنازعين أن يردّوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: «فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (النساء: ٥٩). وقد فسّر مجاهد وغير واحد من السلف الردّ إلى الله بالرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالردّ إليه حال حياته، والى سنته بعد مماته، وقد حكى ابن القيم الإجماع في ذلك.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

مَنْزِلَةُ الأُمِّ فِي الإِسْلاَمِ

الحلقة الثانية

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مُضلَّ له، ومن يضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.وبعد:

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فما يزال حديثنا مستمرًا عن منزلة الأم في الإسلام، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

عُقوقُ الأمِّ

إنَّ الْعُقُوقَ لَفْظَةٌ مَا أَبْشَعَهَا، وَفَعْلَةٌ مَا أَشْنَعَهَا، تَقِفُ مِنْ لَفْظِهَا الشُّعُورُ، وَتَقْشَعِرُّ مِنْ ذِكْرِهَا الْجُلُودُ، وَيُتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنْهَا، وَيُسْأَلُ مِنْ مِثْلِهَا الْعَافِيَةُ وَالسَّلامَةُ، وَيُخْشَى عَلَى فَاعِلِهَا الْحَسْرَةُ وَالْعَثْرَةُ، وَالْمَلامَةُ وَالنَّدَامَةُ إِذْ هُوَ سُبَّةُ الأَبَدِ وَفَتُّ الْعَضُدِ.

إنَّهُ كَبِيرَةٌ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَإِفْلاسٌ مِنَ الأَدَبِ، وَإِمْلاقٌ مِنَ الْخَيْرِ، وَإِقْتَارٌ مِنَ الْفَضْلِ، وَبُعْدٌ مِنَ النَّجَاةِ، وَقُرْبٌ مِنَ الْعَطَبِ، وَضَعْفٌ فِي الرَّأْيِ، وَقِلَّةٌ فِي الْعَقْلِ، وَطَيْشٌ فِي الْفِعْلِ، وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ وَهَنٌ فِي الدِّيَانَةِ وَضَعْفٌ فِي الإِيمَانِ وَرِقَّةٌ فِي إِسْلامِ صَاحِبِهَا وَاضِحَةٌ مَكْشُوفَةٌ.

قَالَ ابنُ فارسٍ:

الْعَيْنُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الشَّقِّ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ فُرُوعُ الْبَابِ بِلُطْفِ نَظَرٍ.

قَالَ الْخَلِيلُ: أَصْلُ الْعَقِّ الشَّقُّ.

قَالَ: وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْعُقُوقُ... وَالْعُقُوقُ: قَطِيعَةُ الْوَالِدَيْنِ وَكُلِّ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ. يُقَالُ عَقَّ أَبَاهُ فَهُوَ يَعُقُّهُ عَقًّا وَعُقُوقًا.

قَالَ زُهَيْرٌ:

فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ
بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْثَمِ

وَفِي الْمَثَلِ: « ذُقْ عُقَقُ » وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَالَ لِحَمْزَةَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَهُوَ مَقْتُولٌ: « ذُقْ عُقَقُ » يُرِيدُ يَا عَاقُّ. وَجَمْعُ عَاقٍّ عَقَقَةٌ. وَيَقُولُونَ: « الْعُقُوقُ ثُكْلُ مَنْ لَمْ يَثْكَلْ »، أَيْ إِنَّ مَنْ عَقَّهُ وَلَدُهُ فَكَأَنَّهُ ثَكِلَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَحْيَاءً.

و« هُوَ أَعَقُّ مِنْ ضَبٍّ » ; لأَنَّ الضَّبَّ تَقْتُلُ وَلَدَهَا. اهـ (معجم مقاييس اللغة: ٣/٤ – ٥).

عُقوبةُ العُقوقِ:

إنَّ النَّفْسَ الَّتِي تَعُقُّ الأُمَّ نَفْسٌ مَهِينَةٌ، تَمِيلُ إِلَى صَنِيعِ الأَلائِمِ وَتَرْغَبُ عَنْ صَنِيعِ الأَكَارِمِ، وَمَعَ أَنَّهَا قَدْ تَعِيشُ طَاعِمَةً نَاعِمَةً لَكِنَّ هَذَا لا يُغْنِي عَنْهَا شَيْئًا فَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِي نِعَمِ اللهِ وَمَالَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلاقٍ، وَمَهْمَا طَالَتْ بِهِ الأَيَّامُ فَلا بُدَّ أَنْ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ الدَّهْرِ فَإِنَّ الْكَأْسَ الَّتِي يَسْقِي بِهَا يَشْرَبُ مِنْهَا وَزِيَادَةً فَإِنَّ الْبَادِيَ لا بُدَّ أَنْ يُزَادَ وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ.

الْعُقُوقُ ظَاهِرَةٌ مُؤْلِمَةٌ، وَرَزِيَّةٌ تَجِيءُ بِالْخَاطِئَةِ، وَبَلِيَّةٌ خَافِضَةٌ غَيْرُ رَافِعَةٍ، تَرْتَعِدُ مِنْ شَنَاعَتِهَا فَرَائِصُ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ.

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّهُ هَبَّتْ فِي زَمَانِنَا رِيحٌ مِنَ الْعُقُوقِ عَاصِفٌ عَقِيمٌ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْبِرِّ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ، وَلا يَزَالُ نَقْعُهَا فِي زَمَانِنَا ثَائِرٌ، وَغُبَارُهَا قَائِمٌ، وَإِلَى اللهِ إِيَابُ الْخَلْقِ، وَعَلَيْهِ حِسَابُهُمْ.

وَدَبَّتْ فِي زَمَانِنَا عَقَارِبُ الْعُقُوقِ فَلَسَعَتْ مَنْ كَانَ عَاقًّا مُشَاقًّا وَسَامَتْهُ رَيْبَ الْمَنُونِ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ.

تعجيلُ عُقوبَة العُقوق:

إن العقوق لؤم يورث الشؤم ولا يمكن للعاق أن يهرب من عاقبة العقوق ولا أن يجد منه مَلْجأ أوْ مَغارَاتٍ أوْ مُدَّخلاً ولو ولوا إليه وهم يجمحون.

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ مَعَ مَا يدخر له؛ من الْبَغْي وَقطيعة الرحم» رواهُ ابْن مَاجه وَالتِّرْمذِيّ وَقَالَ: حَدِيث حسن صَحِيح، وَقَالَ الْحَاكِم: صَحِيح الإِسْنَاد.

إنَّ الْعُقُوقَ مَرْكَبٌ صَعْبٌ تَعِزُّ النَّجَاةُ عَلَى رَاكِبِهَا إِذْ هِيَ مَرْكَبٌ مَعِيبَةٌ تُغْرِقُ أَهْلَهَا فَكُلُّهَا خُرُوقٌ وَفُتُوقٌ.

قَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: يُرجَى لِلرَّهِق بِالبِرِّ الجَنَّةُ، وَيُخَافُ عَلَى المُتَأَلِّهِ بِالعُقُوقِ النَّارُ. (السير:٦/٢٩٢).

العقوق يفسخ المودة وينسخ المحبة ويولد البغضاء ويهتف بريح الشقاء ويأتي بجهد البلاء ويحل درك الشقاء ويجعل البلاد مجدبة والحال مسغبة، ونعوذ بالله من مفاتيح الشر، لا رُعوا.

فأفق أيها النائم وانتبه أيها الحالم ولا تغرنك أضغاث أحلام كاذبة ولا تخدعنك آمال غير صائبة ومطامع دنيا خائبة قد غرت قبلك سوالف القرون فما أغنت عنهم شيئًا « أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ » (الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧).

وإياك والعقوق فإنه مشوار كثير العثار، وصاحبه معثر مخذول، يعض على يديه وهو ناكص على عقبيه، نادمًا ندامة الكسعي يمسح خديه بنعليه ذلاً وهوانًا « وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ » (الحج: ١٨).

واعلم أن كل ذخائر الدنيا ذاهبة إلى المتالف إلا ذخيرة البر وعقيلة الإحسان، لا سيما إلى الأم، فاستعصم بعرى البر، واستمسك بأهدابه، والله تعالى معك لا يترك، ولا يلتك من عملك شيئًا، بل هو سبحانه يوفيك أجرك ولا يسألك شيئًا فلا تخف ظلمًا ولا هضمًا « وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ » (آل عمران: ١١٥)، والله تعالى لك خير معين وأكرم مسؤول وأعظم مأمول.

عُقوقُ الأُمَّهات من أكْبَر الكَبائر:

الأُمُّ خَلْقٌ ضَعِيفٌ هَيِّنٌ فَهِيَ عَلَى شِدَّةِ تَحَمُّلِهَا إِلاَّ أَنَّهَا عَطْفٌ وَإِحْسَانٌ وَبِرٌّ وَامْتِنَانٌ، مِنْ أَجْلِ هَذَا صَرَّحَتْ الآيَاتُ ونصرتها الأَحَادِيثُ الصحيحات والآثار الواضحات بالتَّحْذِيرِ مِنْ عُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ عُمُومًا وَخَصَّتْ عُقُوقَ الأُمِّ بقسط مُفْرد وَاف تَحْذِيرًا مِنْهُ وَنَذِيرًا به، فَلَرُبَمَا أَطْمَعَ الشَّيْطَانُ بَعْضَ بَنِي آدَمَ فِي الأُمِّ فَأَدْخَلَ عَلَيْهَا مَا يُؤْذِيهَا وَهُوَ مَا نُشَاهِدُهُ وَنُطالعُهُ، إنَّه وَاقِعٌ مُرٌّ أليمٌ حاصلٌ بَيْنَنَا.

قال تعالى: « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا » (الإسراء: ٢٣- ٢٤).

وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ البَنَاتِ، وَمَنَعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ » (رواه البخاري (٢٤٠٨) ومسلم (٥٩٣)).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: «قِيلَ خَصَّ الأُمَّهَاتِ بِالذِّكْرِ؛ لأَنَّ الْعُقُوقَ إِلَيْهِنَّ أَسْرَعُ مِنَ الآبَاءِ لِضَعْفِ النِّسَاءِ، وَلِيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّ بِرَّ الأُمِّ مُقَدَّمٌ عَلَى بِرِّ الأَبِ فِي التَّلَطُّفِ وَالْحُنُوِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ. اهـ (فتح الباري: ٥/٦٨ (٢٤٠٨)).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الكَبَائِرِ، قَالَ: « الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ » (رواه البخاري (٢٦٣٥) ومسلم (٨٨)).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ» (رواه البخاري (٦٦٧٥)).

أيُّها العَاقُّ:

ارجع إلى رشدك والزم الصواب وكن على جادة البر واحذر العقوق فإن من عق تخلى الله عنه وسلط عليه من يصرعه لليدين وللفم.

فلا تغرك الليالي ما سلمت ففي عواقبها يدرك الكدر، لذا لا مفر للعاق ولا محيد له

إذا الرشد والنَّصَفَة إلا أن يرجع إلى رشده ويتوب ويعود إلى صوابه ويثوب وإلا فإن الله لا يعجزه من هرب ولا يفوته من طلب «يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ» (القيامة: ١٠-١١).

لا مفر لك أيها العاق من العقاب الشاق فهيئ للبلايا أسبابًا، وتدرع للرزايا جلبابًا، فإنها سكون لك بالمرصاد وإن رمت التحقق فاقرأ أول النحل وآخر ص قال تعالى: «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» (النحل: ١)، وقال أيضًا: «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ» (ص: ٨٨)، ومن الكأس نفسها- كأس العقوق- لأبد أن تسقى.

واشْرَبْ بِكَأْسٍ كُنْتَ تَسْقِي بِهَا

أَمَرَّ فِي الحَلْقِ مِنَ العَلْقَمِ

قصة تُثِيرُ العَبْرَةَ وَتَبْعَثُ العِبْرَةَ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«مَا تَكَلَّمَ مَوْلُودٌ مِنَ النَّاسِ فِي مَهْدٍ إِلاَّ عِيسى ابن مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ» قِيلَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! وَمَا صَاحِبُ جُرَيْجٍ؟ قَالَ: «فَإِنَّ جُرَيْجًا كَانَ رَجُلاً رَاهِبًا فِي صَوْمَعَةٍ لَهُ، وَكَانَ رَاعِيَ بَقَرٍ يَأْوِي إِلَى أَسْفَلِ صَوْمَعَتِهِ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ تَخْتَلِفُ إِلَى الرَّاعِي، فَأَتَتْ أُمُّهُ يَوْمًا فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ! وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ- وَهُوَ يُصَلِّي- أُمِّي وَصَلاَتِي؟ فَرَأَى أَنْ يُؤْثِرَ صَلاَتَهُ، ثُمَّ صَرَخَتْ بِهِ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: أُمِّي وَصَلاَتِي؟ فَرَأَى أَنْ يُؤْثِرَ صَلاَتَهُ. ثُمَّ صَرَخَتْ بِهِ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: أمي وصلاتي. فرأى أن يُؤْثِرَ صَلاَتَهُ.

فَلَمَّا لَمْ يُجِبْهَا قَالَتْ: لاَ أَمَاتَكَ اللَّهُ يَا جُرَيْجُ! حَتَّى تَنْظُرَ فِي وَجْهِ الْمُومِسَاتِ. ثُمَّ انْصَرَفَتْ فَأُتِيَ الْمَلِكُ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، وَلَدَتْ فَقَالَ: مِمَّنْ؟ قَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ. قَالَ: أَصَاحِبُ الصَّوْمَعَةِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: اهْدِمُوا صَوْمَعَتَهُ وَأْتُونِي بِهِ، فَضَرَبُوا صَوْمَعَتَهُ بِالْفُؤُوسِ، حَتَّى وَقَعَتْ، فَجَعَلُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ بِحَبْلٍ؛ ثُمَّ انْطُلِقَ بِهِ، فَمَرَّ بِهِ عَلَى الْمُومِسَاتِ، فَرَآهُنَّ فَتَبَسَّمَ، وَهُنَّ يَنْظُرْنَ إِلَيْهِ فِي النَّاسِ، فَقَالَ الْمَلِكُ: مَا تَزْعُمُ هَذِهِ؟ قَالَ: مَا تَزْعُمُ؟ قَالَ: تَزْعُمُ أَنَّ وَلَدَهَا مِنْكَ. قَالَ: أَنْتِ تَزْعُمِينَ؟

قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: أَيْنَ هذا الصغير؟ قالوا: هذا فِي حِجْرِهَا، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ. فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: رَاعِي الْبَقَرِ، قَالَ الْمَلِكُ: أَنَجْعَلُ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: مِنْ فِضَّةٍ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: فَمَا نَجْعَلُهَا؟ قَالَ: رُدُّوهَا كَمَا كَانَتْ، قَالَ: فَمَا الَّذِي تَبَسَّمْتَ؟ قَالَ: أَمْرًا عَرَفْتُهُ، أَدْرَكَتْنِي دَعْوَةُ أُمِّي، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ» (رواه البخاري).

فانظر إلى هذا العقاب العاجل بدعوة واحدة من أُمٍّ تَوَهَّمَتْ شَيْئًا ومع ذلك تحققت الدعوة كما قالتها، بل الأعجب من ذلك أن جريجًا أيقن أن هذا أثر دعوة أمه فإنه لما قيل له: فَمَا الَّذِي تَبَسَّمْتَ؟ قَالَ: أَمْرًا عَرَفْتُهُ، أَدْرَكَتْنِي دَعْوَةُ أُمِّي.

وليس من السهل أن يعرف الرجل من أين أتي إلا إذا كان يقظًا حازمًا مع نفسه.

وقد تقدم عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ مَعَ مَا يدخر له؛ من البغي وقطيعة الرحم».

آيات فيها البر والعقوق معًا:

وهي آيات من سورة الأحقاف جمعت بين مثالين متناقضين ووجهين متخالفين برًا وعقوقًا وقد ذكرتهما معًا ليدب فينا الأمل ويسري إلينا شيئ من الرجاء فإن من قرأ حوادث الأيام يجد فيها أهوالاً وصعابًا ويطالع عجائب وغرائب مما يشعر المرء بأنه قد أظلنا زمان أضحى البر فيها كَسَدَتْ سُوقُهُ وَتَقَلَّصَتْ بُسُوقُهُ (قال الراغب: والباسق هو الذاهب طولا من جهة الارتفاع، ومنه: بَسَقَ فلان على أصحابه: علاهم اهـ المفردات: ص ١٢٣) حتى غمرت بالعقوق سُوقُهُ (جمع ساق) حتى تلفت بضائعه ودرست صنائعه.

الأول: قال تعالى: «وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ» (الإسراء: ١٥-١٦).

فتأمل هذه الآيات تجد أنها بدأت بذكر الوصية بالوالدين والإحسان إليهما إجمالاً ثم عطفت التفصيل بما قامت به الأم من أعباء المراحل المتعاقبة وهي الحمل وما فيه من تعب وآلام ثم

المخاض وما فيه من مشقة لا تحس بها إلا الأم ثم الوضع والرضاع وفي هذا إشار خفية إلى العناية بالأم أكثر من الأب والحرص على الزيادة في البر لها على الأب والله أعلم.

قال ابن كثير: (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا) أي: قاسَتْ بسَبَبِه في حَالِ حَمْله مَشقَّةً وَتعَبًا، منْ وحَامٍ وَغشيَانٍ وَثقلٍ وكَرْبٍ، إلى غيْر ذلكَ ممَّا تَنَالُ الحَوامِلُ منَ التعَبِ والمَشقَّة. (وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) أي: بمَشقَّة أيضًا منَ الطَّلْق وَشدَّته، (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا) (تفسير ابن كثير: ٧/ ٢٨٠).

الثاني: قال تعالى: « وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (الأحقاف: ١٧- ١٩).

أما هذا الثاني: فهو إنسان تأفف من والديه بعد أن تحملا منه ما لا يحتمل وأبى أن يؤمن بما آمَنَا به.

قال ابن كثير: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الدَّاعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ الْبَارِّينَ بِهِمَا وَمَا لَهُمْ عِنْدَهُ مِنَ الْفَوْزِ وَالنَّجَاة، عَطَفَ بِحَالِ الأَشْقِيَاء الْعَاقِّينَ لِلْوَالِدَيْنِ فَقَالَ: «وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا»-وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ قَالَ هَذَا. (تفسير ابن كثير: ٧/٢٨٣).

كيف نربي أولادنا على البر؟

إنَّ الله تعالى منْ حكْمَته أنَّهُ جَعَلَ لكُلِّ شَيْءٍ طَرِيقًا وَهَيَّأَ لَهُ سَبَبًا وَهَنَالك أمور تعين المرء على أن يكون بارًا بالناس عمومًا وبوالديه وأمه خصوصًا.

أولاً: التربية على البر:

وهذا أعظم أسباب البر طرقًا وأوسعه فجاجًا وأكثرها عونًا عليه فإن من أعياه البر صغيرًا فمطلبه كبيرًا عليه صعب وشديد كما قيل في العلم والفقه:

إذَا أنْتَ أعْيَاكَ التَّفَقُّهُ نَاشِئًا
فَمَطْلَبُهُ شَيْخًا عَلَيْكَ شَدِيدُ

وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ بِأَنْ يُعَدَّ الْمَرْءُ وَيُرَبَّى لِيَنْضَمَّ إِلَى جُمُوعِ الْبَرَرَةِ وَلا يَتم هَذَا إلا بالتَّرْبِيَةِ عَلَى ذَلِكَ وَإِعْدَادِ الأَجْيَالِ لَهُ، فَإِنَّهُ خُلُقٌ لا يَأْتِي فِي عَشِيَّةٍ أَوْ ضُحَاهَا بَلْ هُوَ يَحْتَاجُ إِلَى الْمُعَالَجَةِ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ خُلُقٍ فَتَغْيِيرُهُ يَصْعُبُ عَلَى الْمَرءِ وَإِصْلاحُهُ شَاقٌّ يَطُولُ، حَتَّى قَالَ الشَّاعِرُ:

كُلُّ امْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشِيمَتِه
وَإِنْ تَغَيَّرَ أَخْلاقًا إِلَى حِينِ

وَهَلْ يَسْتَقِيمُ الْعُودُ إِذَا اشْتَدَّ وَاسْتَوَى عَلَى عوج؟!

إِنَّ تَـرْكَ الْمَـرْءِ حَتَّى يُصْبِحَ قَاسِيًا صُلْبًا كَالْحَجَرِ الصَّلْدِ أَوْ حَدِيدًا كَالَّذِي يُعَدُّ لِلْقَيْدِ لَهُوَ أَشَدُّ مَا يُفْسِدُ الطِّبَاعَ وَيَجْنِي عَلَى الْبِرِّ.

ومن التربية على البر:

أن يُعَوَّدَ الطِّفْلُ عَلَى إِجْلالِ أُمِّه وَتَوْقِيرِهَا- وَمَا يُقَالُ فِي الأُمِّ يَنْسَحِبُ بَدَاهَةً عَلَى الأَبِ - فَيَشِبُّ على الخضوع لهما والإذعان لأمرهما وهيبتهما وإجلالهما وتقبيل يديهما وغض الصوت عندهما وخفض جناح الذل لهما والدعاء لهما في حياتهما وبعد موتهما وقد جُمِعَتْ هذه المعاني كلها في قوله تعالى:

«وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا» (الإسراء: ٢٣- ٢٤).

إن الخُلق سجية وعادة، فإن عُوِّد المرء ورُبِّي على أحسنه وهو في الصغر أتقنه وبلغ منه المأرب وسهل عليه الركض في ميدانه والجري مع فرسانه وإن أهمل إهمال الأنعام والبهائم لَمْ يُرْجَ خَيْرُهُ وَلَمْ يَلُحْ فَلاحُهُ وصار الخلق السيئ عادة له ثابتة وطريقة له لازمة.

فورث أبناءك البر فهو خير ميراث كما قال الشاعر:

خير ما ورث الرجال بنيهم
أدب صالح وطيب ثناء
هو خير من الدنانير والأوراق
في يوم شدة ورخاء
تلك تفنى والعلم والأدب الصالح
لا يفنيان حتى اللقاء

وللحديث بقية في العدد القادم بإذن الله،

والحمد لله رب العالمين.

واحة التوحيد

من نور كتاب الله

المداومة على الطاعة تطهّر العبد من الذنوب

قال تعالى: « وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ » (هود: ١١٤).

من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

أفضل الذكر

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحبّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. لا يضرك بأيهنّ بدأت". (صحيح مسلم).

من فضائل الصحابة

عن أبي عبيدة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "خالد سيف من سيوف الله عز وجل، ونعم فتى العشيرة". وفي رواية عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين". (صحيح الجامع للألباني).

من دلائل النبوة

خاتم النبوة

عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: "ذهبت بي خالتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله! إن ابن أختي وَجِعٌ. فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، ثم توضأ فشربت من وَضوئه، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر الحجلة". (متفق عليه).

من دعائه صلى الله عليه وسلم للتحصن من الشرك

عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قال: قل "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم". (الأدب المفرد).

حكم ومواعظ

عن همام عن كعب رضي الله عنه قال: "إن العبد ليذنب الذنب الصغير فيحقره ولا يندم عليه ولا يستغفر منه، فيعظم عند الله حتى يكون مثل الطود، ويعمل الذنب العظيم فيندم عليه ويستغفر منه فيصغر عند الله عز وجل. (الأدب المفرد).

من غريب الأحاديث

وفيه « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل » أي: تعملون مثل أعمالهم، كما تقطع إحدى النعلين على قدر النعل الأخرى. والحذو: التقدير والقطع. (غريب الحديث لابن الأثير)

إعداد/ علاء خضر

خُلق حسن فالزمه

قال معاوية رضي الله عنه: «عليكم بالحلم والاحتمال حتّى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال». (نضرة النعيم).

خلق سيئ فاحذره

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "الشّحّ: منع الزّكاة، وادخال الحرام". (نضرة النعيم).

موقف السلف من معاملة غير المسلم

عن مجاهد قال: كنت عند عبد الله ابن عمرو وغلامه يسلخ شاة فقال: "يا غلام! إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي". فقال رجل من القوم: اليهودي أصلحك الله؟! قال: إني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يُوصي بالجار حتى خشينا أو ظننا أنه سيورثه". (الأدب المفرد).

أحاديث باطلة لها آثار سيئة

«إذا رأيتم العبد ألمّ الله به الفقر والمرض فإن الله يريد أن يصافيه». حديث موضوع.

قلتُ: "على العبد أن يرضى بما قسمه الله له، ولكن على العبد أن يحذر من التواكل، وعليه الأخذ بالأسباب في دفع ما يكره". (انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني).

من حكمة الشعر

قال أبو العتاهية في وصف الدنيا:

هي الدنيا؛ إذا كملت
وتمّ سرورها خذلت
وتفعل في الذين بقوا
كما فيمن مضى فعلت

(العقد الفريد).

أخطاء عقدية شائعة: معرفة الله بالعقل

سُئل عبد الرحمن بن أبي حاتم عن رجل يقول: عرفت الله بالعقل والإلهام. فقال: "من قال عرفت الله بالعقل والإلهام فهو مبتدع؛ عرفنا كل شيء بالله".

وسُئل ذو النون المصري: بماذا عرفت ربك؟ فقال: "عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي". (مجموع الفتاوى لابن تيمية).

دراسات شرعية **أثر السياق في فهم النص**

(الحلقة ٨١)

تنوع قرائن السياق وأثره على الأحكام الفقهية

الطلاق في الحيض

الحلقة السابعة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد: وصلنا في بحثنا في هذه المسألة إلى كيفية استخراج واستخدام القرائن بأنواعها المختلفة في التوجيه والترجيح، فذكرنا من القرائن العامة أولاً: أن الأحكام الشرعية لا تؤخذ من الأحاديث الضعيفة، وذكرنا الأحاديث الضعيفة التي وردت في ثنايا البحث واستبعدناها.

ثم ذكرنا ثانيًا: جمع روايات الحديث: حديث ابن عمر - العمدة في هذا الباب، وزيادة أبي الزبير، فذكرنا ثلاثة عناصر في هذه الجزئية، ونستأنف البحث - بإذن الله تعالى-:

إعداد/ متولي البراجيلي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

مازال بحثنا متصلاً في استخراج واستخدام القرائن في التوجيه والترجيح، فذكرنا عشرًا من القرائن العامة في العددين السابقين، ونستأنف البحث بإذن الله تعالى.

حادي عشر: الأصل في الحديث عدم الإدراج:

الإدراج هو زيادة لفظ في الحديث من كلام أحد الرواة، وليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فيحسب من يسمع الحديث أنها من كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

والإدراج قد يقع في المتن، مثل حديث عائشة رضي الله عنها: "وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتحنث الليالي ذوات العدد في غار حراء" رواه الزهري بلفظ: "وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتحنث - يعني يتعبد- الليالي ذوات العدد في غار حراء". فكلمة: يتعبد مدرَجة في المتن يبين بها لفظة يتحنث.

وإن كان الإدراج لبيان معنى كلمة غريبة فلا بأس به بشرط أن يذكر الراوي أنها مدرجة.

أما إذا تعمد الإدراج فهذا من التدليس.

ويقع الإدراج في السند، ومثال ذلك حديث ثابت بن موسى (الزاهد) عندما دخل على شريك بن عبدالله النخعي وهو في المسجد يملي حديثًا على تلاميذه يرويه عن الأعمش عن أبي سفيان (طلحة بن نافع) عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد؛ عليك ليل طويل فارقد...". الحديث، فأملى شريك بن عبدالله الإسناد، ثم توقف لأجل أن يملي المستملي على من بعده، فدخل ثابت بن موسى الزاهد، فأخذ شريك يداعبه قائلاً له: "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه في النهار". فانصرف ثابت وقد حفظ الإسناد، وهو يظن أن هذا هو متن

ذلك الإسناد، فكان يحدث به، فالحديث بذلك موضوع (انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني، ح ٤٦٤٤).

لكن متن هذا الحديث صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو في الصحيحين. (وللخطيب البغدادي كتاب في الإدراج: فصل الوصل لما أدرج في النقل)، ويعرف الإدراج بتصريح الراوي، أو بجمع مرويات الحديث. والأصل في الحديث عدم الإدراج - ما لم يصرح الراوي بأنه أدرج في الحديث لفظة- وعلى من يقول بالإدراج أن يأتي بدليل قوله، فهذا الأمر لا يقوم على الاحتمال، وإلا رددنا كثيرًا من ألفاظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم بدعوى إنها مدرجة.

وقد قال ابن حزم أن لفظة (هي واحدة) في حديث ابن عمر: لعله ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يعني أنه لم يتحقق من أنها مدرجة، والأصل كما بينا عدم الإدراج. وكذلك قال ابن القيم: لا ندرى أقالها ابن وهب من عنده أم ابن أبي ذئب أو نافع وقد جمع الألباني طرق الحديث ورواياته وبين أنها ليست مدرجة، وأنه لا يجوز رد لفظ في الحديث بالاحتمالات والتشكيك (انظر إرواء الغليل ١٢٤/٧-١٣٥).

لذا وجدنا الشيخ أحمد شاكر لا يردها بدعوى الإدراج، وإنما يقول عنها (وهي واحدة) أنها تعود على الطلقة التي ستكون بعد الطهر ولا تقع على الطلقة التي في الحيض. (انظر نظام الطلاق في الإسلام صـ٢٢).

ثاني عشر: جواز عدم عودة الضمير على أقرب مذكور:

إن القاعدة هي عودة الضمير إلى أقرب مذكور، لكن قد لا يعود الضمير على أقرب مذكور إذا جاءت قرينة تصرفه عن العودة على أقرب مذكور إلى غيره. ومن ذلك قوله تعالى: «وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ» (الزمر ٧٥)، ففي قوله تعالى: «وقضي بينهم بالحق»، فلو قلنا بعودة الضمير على أقرب مذكور، معنى ذلك أن الضمير سيعود على الملائكة لأنهم أقرب مذكور في الآية، فمن المعلوم أن الملائكة مجبولون على الطاعة، لا تظالم بينهم، فالضمير يعود على العباد المذكورين قبل ذلك في الآيات، فيقضى بينهم بالعدل (وقد تم تفصيل هذه القاعدة في الحلقة ٧٧).

فقول الشيخ أحمد شاكر: والصحيح الواضح أن قوله (وهي واحدة) إنما يراد به الطلقة التي ستكون في الطهر الثاني في قُبل العدة؛ لأنها أقرب مذكور إلى الضمير... (نظام الطلاق في الإسلام صـ٢٢).

والقرينة التي صرفت عودة الضمير على أقرب مذكور: أن سؤال ابن عمر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان عن واقعة الطلاق في الحيض. والجواب من النبي صلى الله عليه وسلم ينصب على الواقعة المسئول عنها، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى من مرويات الحديث التي تدور حول واقعة الطلاق في الحيض ما يصرح فيه أن السؤال كان عن طلقة الحيض (كقول نافع عندما سئل ما صنعت التطليقة؟ قال هي واحدة اعتد بها (صحيح مسلم)، ورواية سالم عن أبيه عبدالله بن عمر... فراجعتها وحسبت لها التطليقة (صحيح مسلم).

ثالث عشر: زيادة الثقة:

وهي أن ينفرد الراوي بزيادة في الحديث عن بقية الرواة عن شيخ لهم، مثال ذلك أن يحيى بن كثير روى عن جعفر بن أمية الضمري عن أبيه عمرو بن أمية أنه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يمسح على الخفين وعلى العمامة فرواه جماعة عن يحيى ين كثير منهم: زيان بن يزيد. وشيبان، علي بن المبارك وغيرهم من أقران الأوزاعي، رووه هكذا: رأيت النبي صلى الله

عليه وسلم يمسح على الخفين. بدون ذكر العمامة فهل تقبل هذه الزيادة أم لا؟

اختلفت آراء العلماء في قبولها أو عدم قبولها، أو قبولها بضوابط.

يقول الحافظ ابن حجر: والحق في هذا أن زيادة الثقة لا تقبل دائمًا، ومن أطلق ذلك عن الفقهاء والأصوليين (أي قبولها بإطلاق) فلم يصب ثم ذكر شرطين لقبول زيادة الثقة: ١- استواء الرواة في الوصف (العدالة والضبط). ٢- عدم التعرض لروايات الآخرين بالنفي (انظر النكت على كتاب ابن الصلاح ٢/٦١٢-٦١٣).

وقد مر معنا في البحث رواية لحديث ابن عمر، فيها زيادة عن ابن رمح: وكان عبدالله إذا سئل عن ذلك قال لأحدهم: أما إن كنت طلقت امرأتك مرة أو مرتين فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني بهذا، وإن كنت طلقتها ثلاثا، فقد حرمت عليك حتى تنكح زوجًا غيرك، وعصيت الله فيما أمرك من طلاق امرأتك (متفق عليه).

فهل هذه الزيادة في رواية ابن رمح تحتمل منه أم لا؟

بمعنى آخر: هل هي زيادة ثقة أم هذه الزيادة شاذة؟

(فائدة: ومما ينبغي التنبيه عليه أن هذه المسألة محل اجتهاد، فقد يرى أحد نقاد الحديث ردها ويرى آخر قبولها، وذلك بناء على دراسة دقيقة لكل زيادة على حدة، قائلها، ومكانته في شيخه الذي روى عنه هذه الزيادة، ومنزلة الذين خالفهم، إلى غير ذلك من القرائن)، فأبو رمح: محمد بن رمح بن المهاجر: ثقة ثبت (تقريب التهذيب ص ٤٧٨). قال عنه الإمام النسائي: ما أخطأ في حديث واحد، ولو كتب عن مالك لأثبته في الطبقة الأولى من أصحابه (تهذيب التهذيب ٩/١٦٥).

ومن ناحية أخرى فإنه لم ينف في روايته ما جاء في روايات الآخرين، بل زيادته يعضدها ما ذكرناه من روايات متعددة لحديث ابن عمر رضي الله عنه عنهما.

رابع عشر: من القرائن اللفظية المنفصلة:

ما أورده القائلون بعدم وقوع الطلاق في الحيض من حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد". (متفق عليه).

والحديث المستدل به حديث عام وقاعدة من قواعد الدين، لكن لا يعارض الدليل الخاص والذي فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم احتسب تطليقة ابن عمر رضي الله عنهما، وبالتالي صار الطلاق في الحيض داخلاً في "أمرنا"، وهو منه وليس مردودًا.

وقد استخدمنا في البحث مجموعة من القرائن المنفصلة، باعتبار أن الأصل هو حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما طلق امرأة له وهي حائض تطليقة واحدة... (سبق ذكر الحديث وهو في البخاري ح ٥٣٣٢).

١- فذكر عمر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم... (البخاري ح ٤٩٠٨).

٢-... حتى تطهر من حيضتها هذه... (صحيح سنن النسائي ح ٣٣٨٩).

٣-.... فإذا اغتسلت من حيضتها الأخرى... (صحيح سنن النسائي ح ٣٣٩٦).

٤-... وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن (في قبل عدتهن)... وهذه قراءة ابن عباس وابن عمر وهي قراءة شاذة لا تثبت قرآنًا بالإجماع (انظر شرح النووي على مسلم ١٠/٦٩).

(فائدة: حول القراءة الشاذة:

القراءة الشاذة هي التي فقدت شرطًا من شروط القراءات المتواترة، والقراءات المتواترة: هي كل قراءة صح سندها بنقل جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من البداية إلى المنتهى، ووافقت العربية مطلقًا، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديرًا، وهي ما أجمع عليه الصحابة من جمع القرآن

في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما وهي قراءة الأئمة العشرة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف.

والقراءة الشاذة لا تجوز القراءة بها، وقد نقل ابن عبدالبر الإجماع على ذلك، فلفظها غير معجز، والمعول عليه فيها هو المعنى دون اللفظ. والمقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وتبيين معانيها؛ كقراءة عائشة وحفصة رضي الله عنهما: (والصلاة الوسطى صلاة العصر).

والقراءة الشاذة لا تعني ضعف السند، فقد تكون صحيحة السند وموافقة للغة العربية، ولكنها لم تثبت بطريق التواتر، وهذه القراءات إنما كانت من الصحابة الذين نقلت عنهم على جهة البيان والتفسير، لا أن ذلك قرآن يتلى، قال أبو حيان الأندلسي: "إن ما جاء مخالفًا لخط المصحف هو في الحقيقة تفسير لا قراءة".

وقد ضبطها ابن الجزري بصورة أكثر تفصيلاً بقوله: "كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم العشرة أم عن الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عن أئمة التحقيق من السلف والخلف". انظر: (مدخل لدراسة القرآن ص٤٤٢ لابن أبي شهبة، تاريخ القرآن الكريم ص١١٤-١١٥، لابن عبد القادر الكردي، مباحث في علوم القرآن ص١٨٢ لمناع القطان، معجم علوم القرآن ص٢٢٠ إبراهيم الجرمي، النشر في القراءات العشر ٩/١ لابن الجزري).

٥-... فذاك الطلاق للعدة كما أنزل الله عز وجل (صحيح سنن النسائي ح ٣٣٩١).

٦-... فسألت ابن عمر: فاعتددت بتلك التطليقة التي طلقت وهي حائض؟ قال: "ما لي لا أعتد بها، وإن كنت عجزت واستحمقت" (مسلم ح ١٤٧١).

٧-... حسبت علي بتطليقة (البخاري ح ٥٢٥٣).

٨-... فراجعتها وحسبت لها التطليقة التي طلقتها (مسلم ١٤٧١).

٩- فردها عليّ ولم يرها شيئًا (صحيح سنن أبي داوود ٢١٨٥).

١٠-... أنه طلق امرأته وهي حائض فأتى عمر رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فجعلها واحدة (مسند الطيالسي ح ٦٨ وهو في إرواء الغليل ح ٢٠٥٩).

١١- وعن الشعبي: طلق ابن عمر رضي الله عنه امرأته واحدة وهي حائض، فانطلق عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فأمره أن يراجعها ثم يستقبل الطلاق في عدتها، وتحتسب بهذه التطليقة التي طلق أول مرة (سنن الدارقطني ح ٣٩١٨، سنن البيهقي ح١٤٩٢٦، وهو في إرواء الغليل في التعليق على حديث ٢٠٥٩).

١٢-... فرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حتى طلقتها وهي طاهر (ابن حبان ح ٤٢٥٠، وهو في إرواء الغليل في التعليق على حديث ٢٠٥٩).

خلاصة البحث:

على مدى حلقات البحث السبع استعرضنا (على قدر الطاقة) أدلة وأقوال العلماء القائلين بوقوع الطلاق في الحيض، وهم الجمهور، وكذلك أدلة وأقوال العلماء القائلين بعدم وقوع الطلاق في الحيض، وما وصلت إليه بعد البحث في هذه المسألة، واستخدام قرائن السياق بكل أنواعها، أن النفس تطمئن إلى قول الجمهور بأن الطلاق في الحيض واقع مع إثم من أوقعه، هذا والله أعلم، والحمد لله رب العالمين.

العقيقة آداب وأحكام

إعداد/ محمد عبد العزيز

الحلقة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فمن أجل النعم التي أنعم الله بها على عباده نعمة الولد، قال الله تعالى: « لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ » (الشورى: ٤٩-٥٠).

فالولد هبة عظيمة من الله عز وجل يمتن به على من يشاء من عباده، فيهبه إن شاء الإناث، وإن شاء الذكور، وإن شاء وهبه ذكورًا وإناثًا، فيمتن على عباده بما يشاء، وإن شاء حرمه الولد فيكون عقيمًا.

وقد قال الله تعالى في سورة النعم (النحل): « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ » (النحل: ٧٢).

فمن حرم الولد، فقد حرم خيرًا عظيمًا، وهذا خليل الرحمن نبي الله ورسوله إبراهيم صلى الله عليه وسلم قد حرم الولد حتى بلغ به الكبر، فكان يدعو ربه حتى امتن عليه فاستجاب له، ورزقه الولد، فرزقه إسماعيل من سريته هاجر، وإسحاق من زوجته سارة قال الله تعالى حاكيًا دعاء الثناء من إبراهيم: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ » (إبراهيم: ٣٩).

فلا تكتمل سعادة الخلق إلا بهذه الهبة العظيمة لذا كان من دعاء المؤمنين: « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا » (الفرقان: ٧٤).

فالولد زينة الحياة الدنيا، لا تكتمل زينتها إلا به، ولا يقدر هذه النعمة قدرها إلا من حرمها، ولعل ذلك من حكم الإله في أن يجعل في بعض خلقه العقيم قال الله تعال: « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » (الكهف: ٤٦).

فإذا أدرك المكلف هذا، فليعلم أن كل نعمة تستوجب الشكر، والشكر منه الواجب، والمستحب.

وهذا موضوع التكليف كله، لكن ما أردته هنا هو: ذكر بعض آداب وأحكام تلك النعمة (الولد)، وإلا لاتسع المقال جدًا، ولاحتاج إلى سلسلة مقالات متتالية ليوفى بعض حقه لا كله.

والذي أريد أن أخصه بالحديث هنا، إنما هو: آداب وأحكام العقيقة.

وسيجيب هذا المقال عن عدد من المسائل المهمة المتعلقة بهذا الموضوع وهي:

- تعريف العقيقة.
- حكم مشروعية العقيقة.
- الحكم التكليفي للعقيقة.
- مم تكون العقيقة؟
- ما مقدار ما يذبح فيها عن الغلام، والجارية؟
- عن كم يُجزئ الإبل، أو البقر في العقيقة؟
- متى تذبح العقيقة؟
- هل تجوز العقيقة عن الكبير؟
- هل تجزئ الأضحية عن العقيقة، أو العكس إن اجتمعت معها؟
ثم أتطرق لمسائل مكملات لهذا الموضوع، وهي:
- حكم مشروعية الأذان والإقامة في أذن الصبي بعد الولادة؟
- هل يشرع حلق شعر الجارية والغلام يوم السابع؟
- هل يشرع التصدق بوزنه ذهبًا، أو فضة؟
- متى يسمى المولود؟
- ما الممنوع، والمشروع من الأسماء؟

تعريف العقيقة:

العقيقة: اشتهر أنها: اسم لما يذبح عن المولود.
وأصلها: شعر الصبي الذي يولد به، فكانوا يحلقونها عنه يوم أسبوعه، ويُهْرِيقُونَ عنه دمًا ؛ فكثر ذلك عندهم حتى جعلوا الذَّبِيحَةَ عَقِيقَةً. (المنتخب من كلام العرب (١/٦٤٤).

قال ابن بطال الركبي (المتوفى: ٦٣٣هـ) في النظم المستعذب (١/٢١٩): «أصل العقيقة: صوف الجزع، وشعر كل مولود من الناس والبهائم، الذي يولد عليه، يقال: عقيقة وعقيق، وعقة أيضًا بالكسر. وبه سميت الشاة التي تذبح عن المولود يوم أسبوعه عقيقة؛ لأنه يزال عنه الشعر يومئذ، فسميت باسم ابن أخي سببها».

قال أبو الفرج ابن قدامة في الشرح الكبير علي المقنع مطبوع مع المغني (٣/٥٨٥): «قال ابن عبد البر: أنكر أحمد هذا التفسير، وقال: إنما العقيقة الذبح نفسه.
ووجهه أن أصل العق القطع، ومنه عق والديه إذا قطعهما».

حكم مشروعية العقيقة:

والعقيقة مشروعة عند جمهور أهل العلم سلفًا وخلفًا، لكن اختلفوا في حكمها بعد اتفاقهم على المشروعية.
وهي من الهدي الذي بقي من شريعة إبراهيم عليه السلام في أهل الجاهلية، فكانوا يفعلونه، ولكن أدخل عليهم الشيطان ما ليس منها، فكانوا يلطخون رأس الصبي بدم العقيقة بعد ذبحها، فجاء الإسلام فأقرهم على هذه الشعيرة، ونفى عنها ما أحدثوه من أمر الجاهلية.

عن بريدة رضي الله عنه قال: «كنا في الجاهلية إذا وُلِدَ لأحدنا غلام، ذبح شاةً، ولَطَخ رأسَه بدَمها، فلما جاء الإسلام، كنا نذبح الشاة يوم السابع، ونحلق رأسه، ونلطخه بزَعفران». رواه أبو داود (٢٨٤٣).

دليل مشروعية العقيقة:

أدلة مشروعية العقيقة كثيرة منها:
- حديث سلمان بن عامر الضبي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مع الغلام عقيقة، فأهريقوا عنه دمًا، وأميطوا عنه الأذى». رواه البخاري (٥٤٧١).
- وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كل غلام رهينة بعقيقته، تذبح عنه يوم السابع، ويحلق رأسه، ويسمى». رواه أبو داود (٢٨٣٧) و(٢٨٣٨)، والترمذي (١٥٥٢)، والنسائي (٧/١٦٦).

الحكم التكليفي للعقيقة:

اختلف أهل العلم في حكم العقيقة على مذاهب:
الأول: الاستحباب، وإليه ذهب جمهور أهل العلم، استدلالاً بالنصوص السابقة، ولحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العقيقة؟
فقال: «لا يحب الله العقوق».
كأنه كره الاسم.
فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما نسألك عن أحدنا يولد له؟
قال: «من ولد له ولد فأحب أن ينسك عنه، فلينسك عن الغلام شاتان مكافئتان، وعن الجارية شاة». رواه أحمد (٦٨٢٢)، وأبو داود (٢٨٤٢)، والنسائي (٤٢١٢) وانظر السلسلة الصحيحة (١٦٥٥).
وموضع الشاهد فيه، قوله: " فأحب أن ينسك عنه ". ففيه التخيير، ولا يكون مع الوجوب.
الثاني: الوجوب، وإليه ذهب الحسن، وأبو الزناد، ورواية عن أحمد، وداود، قال ابن حزم في المحلى (٦/٢٣٤): «العقيقة فرض واجب، يجبر الإنسان

عليها إذا فضل له عن قوته مقدارها.
وهو أن يذبح عن كل مولود يولد له حيًا، أو ميتًا بعد أن يكون يقع عليه اسم غلام أو اسم جارية».
ومما استدلوا به حديث سلمان بن عامر، وحديث سمرة رضي الله عنهما السابقان، ووجه الدلالة من الأول الأمر في قوله: " فأهريقوا " وهو للوجوب عند الظاهرية، والأصل فيه الوجوب عند الجمهور، وهو واضح الدلالة على ما استدلوا به على كل حال.
وحديث سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " كل غلام رهينة بعقيقته". وقد تقدم، ووجه الحجة فيه أنه شبهه بالرهن، وهو لا ينفك إلا بالأداء.
الثالث: ليست سنة، وهو للحنفية، ثم يختلفون على أقوال:
- أنها تطوع، قال الجصاص في شرح مختصر الطحاوي (٢٩٢/٧): «والعقيقة تطوع: من شاء فعلها، ومن شاء تركها».
- أنها مباحة، وهو مروي عن محمد بن الحسن، قال الكاساني في بدائع الصنائع (٦٩/٥): «العقيقة: كانت في الجاهلية، ثم فعلها المسلمون في أول الإسلام، فنسخها ذبح الأضحية، فمن شاء فعل، ومن شاء لم يفعل».
- أنها مكروهة، وهي مروية عن محمد بن الحسن، قال ابن عابدين في الحاشية: «وبأن محمدًا قال في العقيقة: من شاء فعل، ومن شاء لم يفعل.
وقال في الجامع: ولا يعق.
والأول يشير إلى الإباحة، والثاني إلى الكراهة».
وقد استبعد ابن عابدين القول الثاني، وقال: إنه لا يدل على الكراهة، لكن يدل على أنه سنة غير مؤكدة.
- وقول آخر: أنها بدعة ينسب لأبي حنيفة، قال ابن الملقن في التوضيح (٢٦/٢٦٣، ٢٦٤): «ويقابله قولان: أحدهما: أنها بدعة، حكي عن الكوفيين، وأبي حنيفة.
وأنكره أصحابه، ويقولون: هو خرق الإجماع، وإنما قوله: أنها مباحة.
وهو خلاف ما عليه العلماء من الترغيب فيها، والحض عليها».
وقد رد العيني في عمدة القاري هذا القول، قال (٨٣/٢١):
«ونقل صاحب (التوضيح) عن أبي حنيفة والكوفيين: أنها بدعة، وكذلك قال بعضهم في شرحه، والذي نقل عنه أنها بدعة أبو حنيفة.
قلت: هذا افتراء فلا يجوز نسبته إلى أبي حنيفة، وحاشاه أن يقول مثل هذا، وإنما قال: ليست بسنة.
فمراده إما ليست بسنة ثابتة، وإما ليست بسنة مؤكدة».
و لعل قول هذا القائل أخذه من قول ابن المنذر أو نحوه، فقد قال: أنكر أصحاب الرأي أن تكون سنة، وخالفوا في ذلك الآثار الثابتة.
لكن يشكل على هذا ما نقل عن الشافعي، فقد نقل عنه الحافظ في الفتح الإنكار عمن قال بالبدعية فهو نقل قديم، قال الحافظ (٥٠٢/٩): «قال الشافعي أفرط فيها رجلان قال أحدهما: هي بدعة، والآخر قال: واجبة.
وأشار بقائل الوجوب، إلى الليث بن سعد...».
قال: «والذي نقل عنه أنها بدعة: أبو حنيفة».
وأهل المذهب أعرف بقول صاحبهم من غيرهم، وقول الشافعي ليس فيه تعيين للقائل.
الرابع: أنها سنة مؤكدة في حق الغلام، لا الجارية، وهو مروي عن أبي وائل، والحسن، رواه عنه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٤٢٦٤)، واحتجوا بأشياء منه ما جاء في حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مع الغلام عقيقة"، وما جاء في حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " كل غلام رهينة بعقيقته" احتجاجًا بمفهوم المخالفة فيهما.
وهم محجوجون بالأحاديث المصرحة بمشروعية العقيقة عن الجارية، ومنها حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما السابق، فيكون ما احتجوا به خرج مخرج الغالب؛ فلا مفهوم له.
الخامس: أنها فرض ما دام في السبع، فإذا تجاوزه كانت مستحبة، وهو قول الليث بن سعد قال ابن عبد البر: وقال الليث بن سعد: يعق عن المولود في أيام سابعه، في أيها شاء، فإن لم تتهيأ لهم العقيقة في سابعه فلا بأس أن يعق عنه بعد ذلك، وليس بواجب أن يعق عنه بعد سبعة أيام.
وكان الليث يذهب إلى أنها واجبة في السبعة الأيام.
وأرجح المذاهب، المذهب الأول مذهب الجمهور لما تقدم، والله أعلم.

مم تكون العقيقة؟

اتفق أهل العلم القائلون بمشروعية العقيقة أنها

تكون من الغنم- الضأن، والمعز-، ثم اختلفوا هل تجزئ من غيرها كالإبل، والبقر أم لا؟

فالجمهور على أن كل ما أجزأ في الأضحية مجزئ في العقيقة، وهم يستدلون على ذلك بأمور:

الأول: النصوص المطلقة التي وردت في العقيقة، وقد سبق بعضها.

الثاني: القياس على الأضحية.

الثالث: فعل بعض الصحابة، كأنس وأبي بكرة قال ابن القيم في تحفة المودود (ص٨٣): «قال ابن المنذر: واختلفوا في العقيقة بغير الغنم فروينا عن أنس بن مالك أنه كان يعق عن ولده الجزور.

وعن أبي بكرة أنه نحر عن ابنه عبدالرحمن جزورًا فأطعم أهل البصرة.

ثم ساق عن الحسن قال كان أنس بن مالك يعق عن ولده الجزور ثم ذكر من حديث يحيى بن يحيى أنبأنا هشيم عن عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن أبا بكرة ولد له ابنه عبد الرحمن وكان أول مولود ولد في البصرة فنحر عنه جزورًا فأطعم أهل البصرة».

وذهب الظاهرية، وهو ظاهر قول أمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعن أبيها، وكبت عدوهما، وقول حفصة بنت عبدالرحمن بن أبي بكر إلى أنها لا يجزئ فيها إلا الغنم، لأنها هي التي ورد مفصلاً به النص عن النبي صلى الله عليه وسلم قولاً، وفعلاً.

ويدل عليه أحاديث منها:

- حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: "فلينسك عن الغلام شاتين مكافئتين، وعن الجارية شاة."

فقد ورد في الحديث التنصيص على الشاة، ولو كانت تجزئ غيرها لنص عليه، فيكون ما ورد مطلقًا من النصوص مبيناً بهذا، لكن يرد عليه أن الشاة في لغة العرب قد تطلق على غير الغنم، قال في لسان العرب: «الشاة: الواحد من الغنم، يكون للذكر، والأنثى.

وحكى سيبويه عن الخليل: هذا شاة بمنزلة هذا رحمة من ربي.

وقيل: الشاة تكون من: الضأن، والمعز، والظباء، والبقر، والنعام، وحمر الوحش».

لكن الظاهر الأول في لغة العرب هذه، ولو ثبت أنه تطلق على غير الغنم لما أفادهم ذلك، لأن الحديث فيه يذبح عن الغلام شاتان، وعن الجارية شاة، فيلزمهم أن هذا يجري في البقر، والإبل، ولا قائل به.

ولذا قال ابن حزم في المحلى (٢٣٤/٦): «ولا يجزئ في العقيقة إلا ما يقع عليه اسم شاة: إما من الضأن، وإما من الماعز فقط.

ولا يجزئ في ذلك من غير ما ذكرنا لا من الإبل ولا من البقر الإنسية، ولا من غير ذلك».

لكن لا يلزم من ذكر الشاة أن غيرها لا يجزئ إلا من جهة المفهوم، وهو مفهوم لقب، ومفهوم اللقب من أضعف المفاهيم.

قال الشوكاني في نيل الأوطار (١٦٣/٥): «ولعل وجه ذلك ذكرها في الأحاديث دون غيرها، ولا يخفى أن مجرد ذكرها لا ينفي إجزاء غيرها».

فالراجح- إن شاء الله تعالى- ما ذهب إليه جمهور أهل العلم سلفًا، وخلفًا من جواز ذبح ما يجزئ من بهيمة الأنعام في العقيقة، لكن يبقى أن المنصوص عليه فعلاً وقولاً هو الأفضل.

هذا ما يسره الله في هذا المقال، فإن يكن صوابًا فالحمد لله وحده، وإن تكن الأخرى فأسأل الله أن يغفر لي زللي وخطئي، وأستغفر الله منه.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

تهنئة

تهنئ أسرة تحرير المجلة واللجنة العلمية والمركز العام ابنًا آخر من أبنائها الباحث أحمد عبد المنعم المسلمي؛ بمناسبة حصوله على درجة الماجستير في موضوع بعنوان: «الجهود النحوية في كتاب التوضيح لشرح الجامع الصحيح» ، بإشراف أ. د. أحمد محمد عبد الدايم، وناقشه كلٌ من:

- أ. د. عصام عامرية. - أ. د. مصطفى أحمد عبد العليم.

وأسرة تحرير المجلة تتمنى لهما مزيدًا من التوفيق والسداد.

البركة والسبيل إليها

الحلقة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فما يزال الحديث متصلاً عن البركة وسبل تحصيلها، فنكمل ونقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد/ أحمد صلاح

٥- الرضا بما قسم الله وقدَّر، والتعفف عما في أيد الناس:

إن الرزق ليست بكثرة السعي، ولا بكثرة المال، وإنما العبرة بالبركة فيه، فالقليل من السعي، والقليل من المال، مع بركة الله تفعل الأعاجيب، فقد روى الإمام أحمد من حديث أسامة بن عمير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تبارك وتعالى يبتلي عبده بما أعطاه، فمن رضي بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسعه، ومن لم يرض لم يبارك له».

وقد سمعنا عمن يملكون الملايين، وحيزت لهم الدنيا، ويُسمع لهم ويطاع، ونرى الشقاوة في حياتهم، من مرض ونكد وهم وغم وفساد أولاد وزوجات، ما يجعلهم لا يتلذذون بهذا المال، بل ربما مرض أحدهم ومنعه الأطباء من أكل ما شقي لجمعه سنين عددًا، وربما حُبس فيه البول، وتمنى أن لو افتدى بماله كله.

وهذان رجلان: الأول منهما له عشرة من الولد، والثاني ليس له إلا بنت واحدة، ربما تنزع البركة من الأول، فهؤلاء العشرة لا ينفعونه بشيء، ربما كانوا سبب عذابه وهمه ونكده، إنهم عشرة، ولكنهم قليلو البركة، كثيرو المتاعب، أما الثاني (صاحب البنت الواحدة) فيضع الله له فيها من البركة ما تقر به عينه، وينشرح به صدره.

فتقوم البنت بحقه، وترعى شؤونه، مع أنها ربما تكون متزوجة ولها أولادها، ولكنها المنحة الإلهية، والبركة الربانية التي لا تُشترى بالمال، وإنما هي بيد الملك الوهاب، الذي يملك كل شيء، ويتصرف في كونه بحكمته، فيا عبد الله، لو أفاض الله عليك من بركاته ورحماته (مع قلة الراتب، وانعدام الولد، وضعف المعيشة) فأبشر بكل خير، فما منع عنك إلا لأنه يحبك، ويريد الخير لك.

من أسباب قلة البركات:

إن من أسباب قلة البركات تعلق الناس بالمال والدنيا، وغفلتهم عن مآلهم الأخروي، حتى أصبح كثير من العباد عبيدًا للمال، ولا يبالي أمن حلال أكل أم من حرام!

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يُعط سَخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش».

فسماه الشرع (عبدًا) أي: طالبه الحريص عليه، المنغمس في حبه وجمعه كالأسير الذي لا يجد خلاصًا وفكاكًا!! ولم يقل الشرع (مالك الدينار، ولا جامع الدينار)، لا، بل قال: (عبد الدينار)، لأن المذموم هو الجمع والحرص والزيادة على قدر الحاجة، والانغماس في جمعه.

فقد روى البخاري عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حكيم! إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع. (والعرب تسمي كل شيء مشرق ناضر أخضر).

وعند الترمذي من حديث خولة بنت قيس رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن هذا المال خضرة حلوة، من أصابه بحقه بورك له فيه، ورب متخوض فيما شاءت به نفس من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار» والتأنيث في «خضرة حلوة» وإضافتها للمال باعتبار ما يشتمل عليه المال من زهرة الدنيا.

فانظر رحمك الله كيف عبر صلى الله عليه وسلم عن المال بـ «خضرة حلوة» لأن الأخضر والحلو مرغوب فيهما، والإعجاب بهما إذا اجتمعا أشد وأقوى.

وقوله: «بسخاوة نفس» أي: بغير شرة ولا إلحاح وكثرة سؤال، بورك له فيه.

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله، بكى، وقال: يا أبا قلابة، هل تخشى عليّ؟ قال: كيف حبك الدرهم؟ قال: لا أحبه، قال: لا تخف إن الله عز وجل سيعينك. (الزهد لأحمد بن حنبل).

وأما الآخر- عياذًا بالله- فكالذي يأكل ولا يشبع، بل كلما أكل ازداد سقمًا، ولم يجد شبعًا ولا كفاية.

يُحكى أن رجلاً دخل على المنصور العباسي رحمه الله يوم بُويع بالخلافة، فقال له المنصور: عظني، فقال: يا أمير المؤمنين، أعظك بما رأيت، أم بما سمعت؟ قال: بل بما رأيت.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن عمر بن عبد العزيز أنجب أحد عشر ولدًا، وترك ثمانية عشر دينارًا، كُفن بخمسة دنانير، واشتُري له قبرٌ بأربعة دنانير، ووزع الباقي على أبنائه.

وهشام بن عبد الملك أنجب أحد عشر ولدًا، وكان نصيب كل ولد من التركة ألف ألف دينار (أي مليونا)!! والله يا أمير المؤمنين، لقد رأيت في يوم واحد أحد أبناء عمر بن عبد العزيز يتصدق بمائة فرس للجهاد في سبيل الله، وأحد أبناء هشام يتسول في الأسواق.

وقد سأل الناس عمر بن عبد العزيز وهو على فراش الموت: ماذا تركت لأولادك؟ قال: تركت لهم تقوى الله، فإن كانوا صالحين فالله تعالى يتولى الصالحين، وإن كانوا غير ذلك فلن أترك لهم ما يعينهم على معصية الله.

فتأمل رحمك الله: كثير من الناس يسعى ويكد ويتعب ليؤمن مستقبل أولاده، ولكن لا بركة فيهم، ولا بركة في المال، ظنًا منه أن وجود المال الكثير في أيديهم بعد موته أمانٌ لهم!! وقد غفل عن الأمان الأعظم، والتأمين الحقيقي الذي ذكره الله في كتابه: «وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا» (النساء:٩).

بل ذُكر أن ابنة عمر بن عبد العزيز دخلت عليه تبكي، وكانت طفلة صغيرة آنذاك، وكان في يوم العيد، فسألها عمر: ماذا يبكيك؟ قالت: كل الأطفال يرتدون ثيابًا جديدة، وأنا ابنة أمير المؤمنين أرتدي ثوبًا قديمًا؟ فتأثر عمر لبكائها وذهب إلى خازن بيت المال، وقال له: أتأذن لي أن أصرف راتبي عن الشهر القادم؟ فقال الخازن: ولم يا أمير المؤمنين؟ فحكى عمر الحكاية! فقال الخازن: ومن يضمن لي أن تبقى حيًا حتى الشهر القادم لتعمل بالأجر الذي تريد؟ فتركه عمر وعاد إلى أولاده، فقال لهم: أتصبرون وندخل الجنة جميعًا؟ أم لا تصبرون ويدخل أبوكم النار؟ فقالوا: بل نصبر يا أبانا.

فيا ليت لنا مثل الخازن وعمر وأبناء عمر، رحمة الله عليهم أجمعين.

٦- الصدق في البيع وعدم الغش والكذب:

فالصادق في بيعه وشرائه ومعاملاته مبارك له في كسبه وإن قل، مترادف عليه الخير، ففي الصحيحين عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما».

وقوله: «فإن صدقا وبينا بورك لهما..» أي: بين كل واحد لصاحبه ما يحتاج إلى بيانه من عيب وغيره، وصدق في ذلك، بورك لهما في بيعهما، أما لو كذبا (مُحقت بركة بيعهما) أي: ذهبت بركته، وهي: زيادته ونماؤه.

ففي حديث رفاعة بن رافع رضي الله عنه

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن التجار هم الفجار، إلا من اتقى وبر وصدق. (رواه ابن جرير).

كذلك كثرة الحلف في المبيع يهدم أصول البركة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة.

وهذا الحديث فيه النهي عن كثرة الحلف في البيع، فإن الحلف من غير حاجة مكروه، قال الله تعالى: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ »(البقرة:٢٢٤)، بل ربما اغتر المشتري باليمين، وإذا كان النهي يتعلق بكثرة الأيمان وإن كانت صادقة، فكيف بالأيمان الكاذبة الفاجرة؟

فقد روى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس شيء أطيع الله تعالى فيه أعجل ثوابًا من صلة الرحم، وليس شيء أعجل عقابًا من البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الفاجرة تدع الديار بلا قع. ومعنى الديار بلاقع: أي فارغة لذهاب المال، جمع بلقع، وهي الأرض القفراء التي لا شيء فيها، أي: أن الحلاف يفتقر، ويذهب ما في بيته من الرزق والبركة.

٧- اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه في الطعام والشراب، سبب جالبٌ للبركة:

إن اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم جالبٌ للبركة في كل شيء في الزمان والمكان وما لا غنى للإنسان عنه، لا سيما في الطعام والشراب، فانظر كيف حلت البركة في طعام جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يوم الخندق لما أطاع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم!!

فالطعام المبارك هو ما أكلته مما يليك، وتجنبت الأكل من وسط الصحفة، وغسلت يديك، وذكرت اسم الله عليه.

فقد روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: البركة تتنزل وسط الطعام، فكلوا من حافتيه، ولا تأكلوا من وسطه.

قوله: «كلوا من حافتيه» أي: جانبيه، وليس المراد هنا خصوص التثنية، ففي سنن ابن ماجه عن عبد الله بن بُسر أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتي بقصعة فقال: كلوا من جوانبها، ودعوا ذروتها يُبارك فيها.

والذروة: بالضم والكسر، أعلى الشيء، والمراد الوسط، فالبركة والنماء والزيادة محلها الوسط، للحديث السابق: «البركة تنزل وسط الطعام».

وإن من الآداب- أيضًا- أن الإنسان إذا فرغ من أكله فإنه يلعق أصابعه، حتى لا يبقى فيها أثر الطعام، فقد تكون البركة فيما علق بالأصابع من الطعام، فقد روى مسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بلعق الأصابع والصحفة، وقال: إنكم لا تدرون في أيّه البركة.

وفي رواية: إذا وقعت لقمة أحدكم ليأخذها، فليمط ما كان بها من أذى، وليأكلها، ولا يدعها للشيطان، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه البركة. (رواه مسلم).

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يأمر أمته بشيء إلا وفيه الخير والبركة.

أما ما يتعلق بالنهي عن الأكل من وسط الصحفة فإنما هو في الطعام الواحد، أما إذا كان الطعام أنواعًا وأشكالاً وكان نوع منه في الوسط، وأراد أحدٌ أن يأخذ منه شيئًا فلا بأس، مثل أن يوضح اللحم مثلاً في وسط الصحفة فإنه لا بأس أن يأكل من اللحم ولو كان في وسطها، لأنه ليس له نظير في جوانبها، فلا حرج؛ لما رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن خياطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه، فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام، فقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزًا ومرقا فيه دُباءً وقديد، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء من حوالي القصعة، فلم أزل أحب الدباء من يومئذ».

كذلك الاجتماع على الطعام، وعدم التفرق فيه جالبٌ للبركة، ففي سنن أبي داود عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع؟ قال: فلعلكم تفترقون؟ قالوا: نعم، قال: فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه، يُبارك لكم فيه.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

التبرير وإلقاء المعاذير

الحلقة الأولى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه... أما بعد:

فقد خلق الله سبحانه عباده ليوحدوه، وبالإلوهية يفردوه، وأمرهم بطاعته، ووعدهم بجنته، ونهاهم عن معصيته، وخوفهم بناره، وبين نبيه أن كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» (رواه مسلم).

إعداد/ المستشار/أحمد السيد علي إبراهيم

والوقوع في الخطأ ليس عيبًا، إنما العيب في الإصرار على الخطأ والتمادي في الباطل والجدال فيه، والخطأ الأكبر حين يحاول المخطئ إيجاد المبررات ليوهم نفسه ومن حوله بأنه لم يخطئ أصلا، وقد فضح الله هذا الصنف من الناس فقال تعالى: « بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ » (القيامة ١٤ - ١٥)، وقد يبدو الفعل من وجهة نظر الآخرين خطأ فيضطر المسلم أن يبرر فعله للناس، وسوف نلقي الضوء من خلال تلك المقالة على هذا الداء القاتل ليتجنبه المسلم فيظفر بالسلامة في دينه ودنياه.

الوقفة الأولى: تعريف التبرير والمعاذير:

أولا: تعريف التبرير:

جاء في معجم المعاني الجامع: «بَرَّرَ عملَه: زكّاه، وذكر من الأسباب ما يبيحه» اهـ.

وجاء في قاموس المعاني: «برّر العمل ونحوه: سوّغه ؛ زكّاه وذكر ما يبيحه من الأسباب والمعاذير» اهـ.

وجاء في المعجم الغني: «برر العمل أو غيره: ذكر الأسباب والحجج التي تبيح القيام به». اهـ.

ثانيا: تعريف المعاذير:

جاء في معجم المعاني الجامع: «مَعَاذِيرُ: (اسم) مَعَاذِيرُ: جمع مِعْذار، معاذيرُ، المَعْذِرَةُ: عُذْر، حُجَّةٌ يُتأسَّف بها لرفع اللَّوم والحرج والمؤاخذة لم يلتمسْ أيَّة مَعْذِرة، طَلَبَ منْهُ المَعْذِرَةَ: الصَّفْحَ، المُسامحَةَ» اهـ.

الوقفة الثانية: التبرير والمعاذير المقبولة:

فالمسلم قد يقع في الخطأ، أو ما يظن الآخرون أنه خطأ، فينكرون عليه فيبرر فعله بتبريرات مقبولة، ومن هذه التبريرات الآتي:

أولا: الاعتراف بالخطأ فضيلة:

وأصل هذا يعود إلى أول معصية وقعت من البشر، فقد عصى أبونا آدم وأمنا حواء ربهما، فأكلا من الشجرة التي نهاهما عن الاقتراب منها، وحينما أنكر عليهما فعلهما كان الإقرار بالذنب والاعتراف بالخطأ، قال تعالى: « وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا

عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ». (الأعراف ١٩ – ٢٣).

فآدم لم يستخدم أي مبررات نفسية شيطانية رغم وجود مبررات نفسية شيطانية مقنعة مثل:

١- وسوسة الشيطان.
٢- النسيان.
٣- الضعف البشري.
٤- الاحتجاج بالقدر.

كلها فعلاً مبررات مقنعة لكن آدم عليه السلام صادق مع نفسه ومع ربه، كذلك تأمل آدم لم يلم حواء وحواء لم تلم آدم وكلاهما اعترف أنه أخطأ وظلم نفسه واستغفر ربه وهذا هو الذي يجب على المخطئ دوماً أن يقوم بفعله.

ثانيا: السكوت وعدم الجدال:

وقد لا يستطيع الإنسان أن يعترف بخطئه، فيسكت عند الإنكار عليه، ليتعلم من خطئه، فعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى حُنينٍ ونحن حُدثاءُ عهدٍ بكفرٍ وللمشركين سدرةٌ يعكُفون عندَها وينُوطون بها أسلحتَهم يُقالُ لها ذاتُ أنواطٍ، فمررنا بسدرةٍ فقلنا: يا رسولَ اللهِ اجعلْ لنا ذاتَ أنواطٍ، كما لهم ذاتُ أنواطٍ فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اللهُ أكبرُ إنها السَّننُ قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيلَ لموسَى: اجعلْ لنا إلَهًا كما لهم آلهةٌ، لتركبُنَّ سَننَ مَن كان قبلَكم» (رواه أحمد وصححه الألباني).

سدرة أي: شجرة، وقَولُهُ: يُقالُ لَهَا ذاتُ أنواط، الأنواط: جمع نوط، وهو كل شيء يعلق، وذات الأنواط هي الشجرة التي يعلق عليها هذه المعاليق. قَالَ ابن الأثير في النِّهَايَة: هِيَ اسمُ شَجَرَة، بِعَينِهَا كَانَت للمُشرِكِين، يَنُوطُونَ بِهَا سِلاَحَهُم، أي يُعَلِّقُونَهُ بِهَا، وَيَعكُفُونَ حَولَهَا، فَسَأَلُوهُ أن يَجعَلَ لَهُم مِثلَهَا، فَنَهَاهُم عَن ذَلِكَ.

فالصحابة رضوان الله عليهم سكتوا حينما أنكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم قولهم «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» ولم يجادلوا، فلم يقولوا مثلاً هل تكفرنا يا رسول الله؟ نحن لم نطلب إلهاً، وإنما طلبنا سدرة نعلق بها أسلحتنا طلباً للبركة، مما يدل على أن العبرة بالمعاني، وليس بالألفاظ فالنبي- صلى الله عليه وسلم- شبه قولهم بقول بني إسرائيل، مع أنهم لم يطلبوا إلها من دون الله صراحة.

وقارن بين ما فعله الصحابة وبين ما يفعله كثير منا الآن، فقد أنكر أحد طلبة العلم على بعض الناس افتراقهم في كل شيء وعدم قبول رأي المخالف، وأنهم تشبهوا باليهود والنصارى الذين قال الله عنهم: « وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ » (البقرة ١٤٥) وقال: « وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (آل عمران ١٠٥)، فما كان قولهم إلا أنت تكفرنا وتجعلنا كاليهود والنصارى؟!

ثالثاً: التبرير بالنسيان:

قد يقع المسلم في الخطأ نسياناً، فينكر عليه، فيبرر وقوعه في الخطأ بالنسيان وأنه لم يقصده، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما جاء بقصة موسى والخضر عليهما السلام، حيث اشترط الخضر على موسى حال مصاحبته لتلقي العلم ألا يسأله عن شيء مما سيراه حتى يفسره له، فلما خرق الخضر السفينة، خالف موسى الشرط و أنكر عليه، فلما أنكر عليه الخضر عدم الالتزام بالعهد، برر فعله بالنسيان: قال تعالى: « قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا » (الكهف ٦٦- ٧٣).

رابعاً: التبرير بالمصلحة الراجحة:

وقد يقع المسلم فيما يراه الآخرون خطأ فيبرره بجلب المصلحة، ودفع المفسدة، فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «احتلَمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السُّلاسل فأشفَقتُ إن اغتَسَلتُ أن أهلِكَ فتيمَّمتُ، ثمَّ صلَّيتُ بأصحابي

الصُّبحَ فذكَروا ذلكَ للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ: يا عَمرو صلَّيتَ بأصحابِكَ وأنتَ جُنُبٌ؟ فأخبرتُهُ بالَّذي مَنعَني منَ الاغتسالِ وقُلتُ إنِّي سَمِعْتُ اللَّه يقولُ: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا»، فضحِكَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ ولم يَقُلْ شَيئًا» (رواه أبو داود وصححه الألباني)، فالقاعدة أنه إذا وجد الماء بطل التيمم، وعمرو بن العاص كان واجدا للماء، وتيمم وصلى بأصحابه، ومن ثم فقد أنكروا عليه فعله وعدوه خطأ وشكوه للنبي صلى الله عليه وسلم، فبرر فعله بدفع المفسدة المترتبة على الاغتسال، فأقره النبي صلى الله عليه وسلم على فعله فصار التيمم مع وجود الماء لغير القادر على استعماله، سنة تقريرية عن النبي صلى الله عليه وسلم.

خامسا: تبرير الوقوع في الشبهة:

وقد يقع المسلم في شبهة، فيبرر للناس ما وقع فيه حتى لا يتهم في دينه، فعن صفية رضي الله عنها قالت: «كان النبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّمَ معتكفًا. فأتيتُه أزورُه ليلاً. فحدثتُه. ثم قمتُ لأنقلبَ. فقام معي ليَقْلِبني. وكان مسكنُها في دارِ أسامةَ بنِ زيدٍ. فمرَّ رجلانِ من الأنصارِ. فلما رأيا النبيَّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّمَ أسرعا. فقال النبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّمَ " على رِسْلِكما. إنها صفيةُ بنتُ حُيَيٍّ " فقالا: سبحانَ اللَّهِ! يا رسولَ اللَّهِ! قال: " إنَّ الشيطانَ يجري من الإنسانِ مجرى الدمِ. وإني خشيتُ أن يقذفَ في قلوبِكُما شرًّا " أو قال " شيئًا "». (رواه البخاري ومسلم).

قال الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السحيم في شرحه لكتاب عمدة الأحكام تعليقًا على هذا الحديث: «فيه مسائل:... مشروعية ذبّ المرء عن عرضه، ودفع التهمة عنه. فهذا أشرف الْخَلْق صلى الله عليه وسلم دَفَع عن نفسه ما قد يَقَع في النفس، وأخبر عن المرأة التي معه أنها زوجته صفية رضي الله عنها». اهـ.

وقال عمر رضي الله عنه: مَن عَرَّض نفسه للتهمة فلا يلومن مَن أساء به الظن، ومَرّ برَجُل يُكَلِّم امرأة على ظَهر الطريق، فَعَلاه بالدِّرَّة، فقال: يا أمير المؤمنين إنها امرأتي! فقال: هلاّ حيث لا يراك أحدٌ من الناس. ذَكَره الغزالي في " إحياء علوم الدِّين ".

سادسا: تبرير الوقوع في المصيبة:

وقد يقع المسلم في المصيبة، فيبررها بالقدر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «احتجَّ آدمُ وموسى، فقالَ موسَى: يا آدمُ أنتَ أبونا خيَّبتَنا وأخرجتَنا منَ الجنَّةِ، فقالَ لَهُ آدمُ: أنتَ موسَى، اصطفاكَ اللَّهُ بكَلامِهِ، وخطَّ لَكَ بيدِه، أتلومُني على أمرٍ قدَّرَهُ اللَّهُ عليَّ قبلَ أن يخلقَني بأربعينَ سنةً؟ فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ: فحجَّ آدمُ موسَى، فحجَّ آدمُ موسى وفي حديث ابنِ أبي عمرَ وابنِ عبدةَ، قالَ أحدُهُما: خطَّ، وقالَ الآخرُ: كتبَ لَكَ التَّوراةَ بيدِه» (رواه مسلم).

ولايجوز أن يعتقد البعض جواز الاحتجاج بالقدر على فعل المعصية قال شيخ الإسلام: "إن آدم عليه الصلاة والسلام فعل الذنب، وصار ذنبه سبباً لخروجه من الجنة، لكنه تاب من الذنب، وبعد توبته اجتباه الله وتاب عليه وهداه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ومن المحال أن موسى عليه الصلاة والسلام- وهو أحد أولي العزم من الرسل- يلوم أباه على شيء تاب منه ثم اجتباه الله بعده وتاب عليه وهداه، وإنما اللوم على المصيبة التي حصلت بفعله، وهي إخراج الناس ونفسه من الجنة، فإن سبب هذا الإخراج هو معصية آدم، على أن آدم عليه الصلاة والسلام لاشك أنه لم يفعل هذا ليخرج من الجنة حتى يلام، فكيف يلومه موسى؟ وهذا وجه ظاهر في أن موسى عليه السلام لم يرد لوم آدم على فعل المعصية، إنما على المصيبة التي هي من قدر الله، وحينئذ يتبين أنه لا حجة في الحديث لمن يستدل على فعل المعاصي. إذا احتج على المصيبة وهي الإخراج من الجنة، ولهذا قال: أخرجتنا ونفسك من الجنة ولم يقل: عصيت ربك، فهنا كلام موسى مع أبيه آدم على المصيبة التي حصلت، وهي الإخراج من الجنة، وإن كان السبب هو فعل آدم".

وقال رحمه الله: "اللوم على المصائب وعلى المعائب إن استمر الإنسان فيها".

أما تلميذه ابن القيم- رحمه الله- فأجاب

بجواب آخر قال: "إن اللوم على فعل المعصية بعد التوبة منها غلط، وإن احتجاج الإنسان بالقدر بعد التوبة من المعصية صحيح. فلو أن إنساناً شرب الخمر، فجعلت تلومه وهو قد تاب توبة صحيحة وقال: هذا أمر مقدر عليّ وإلا لست من أهل شرب الخمر، وتجد عنده من الحزن والندم على المعصية، فهذا يقول ابن القيم: لا بأس به. وأما الاحتجاج بالقدر الممنوع فهو: أن يحتج بالقدر ليستمر على معصيته، كما فعل المشركون، أما إنسان يحتج بالقدر لدفع اللوم عنه مع أن اللوم قد اندفع بتوبته فهذا لا بأس به".

وهذا الجواب جواب واضح يتصوره الإنسان بقرب، وإن كان كلام شيخ الإسلام- رحمه الله- أسد وأصوب، لكن لا مانع بأن يُجاب بما أجاب به العلامة ابن القيم. وقال ابن القيم: نظير هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم حين طرق ابنته فاطمة وابن عمه عليًّا رضي الله عنهما ليلاً فوجدهما نائمين، فقال: أَلَا تُصَلِّيَانِ؟ فكأنه عاب عليهما، أي لماذا لم تقوما لصلاة التهجد فقال علي رضي الله عنه: يَا رَسُوْلَ اللهِ إنّ أَنْفُسَنَا بِيَدِ الله عزّ وجل فَإذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا ؛ بَعَثَنَا، فَخَرَجَ النَّبي صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَضْرِبُ عَلى فَخذه وَيَقُوْلُ: " وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً " لأن علياً رضي الله عنه دافع عن نفسه بأمر انتهى وانقضى.

ولو أن إنساناً فعل معصية وأردنا أن نقيم عليه العقوبة حدّاً أو تعزيراً وقال: أنا مكتوب عليّ هذا. ولنفرض أنه زنا وقلنا: اجلدوه مائة جلدة وغربوه عاماً عن البلد، فقال: مهلاً، هذا شيء مكتوب عليّ، أتنكرون هذا؟ فسنقول: لا ننكره، فيقول: لا لوم عليّ، فنقول: ونحن سنجلدك ونقول هذا مكتوب علينا. وذكر أن سارقاً رفع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر بقطع يده، فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت إلا بقدر الله، وهذا جواب صحيح، فقال عمر: ونحن لا نقطعك إلا بقدر الله، فغلبه عمر رضي الله عنه، بل نقول: إننا نقطع يده بقدر الله وشرع الله، فالسارق سرق بقدر الله، لكن لم يسرق بشرع الله، ونحن نقطع يده بقدر الله وشرع الله، ولكن عمر رضي الله عنه سكت عن مسألة الشرع من أجل أن يقابل هذا المحتج بمثل حجته. فتبين الآن أن الاحتجاج بالقدر على المعاصي باطل، والاحتجاج بالقدر على فوات المطلوب باطل أيضاً» اهـ.

الوقفة الثالثة: التبرير والمعاذير غير المقبولة:

سبق أن ذكرنا أن التبرير المقبول يكون عند وقوع المسلم في الخطأ، أو ما يظنه الناس خطأ، فيبرره المسلم، أما التبرير غير المقبول فهو عبارة عن أعذار وأسباب تبدو للنظرة العابرة مقنعة ومنطقية ولكنها ليست الأسباب الحقيقية والدوافع الفعلية وراء السلوك وهي عبارة عن تبرير لسلوك الفرد ومعتقداته الذي يعتقد هو في قرارة نفسه أنه خاطئ، ومن شأن هذا السلوك أن يحرم صاحبه من التبصر بأفعاله والتحكم فيها ومراجعة أخطائه، ويختلف التبرير عن الكذب، بأن الأول (التبرير) يكذب فيه الإنسان على نفسه، في حين يكون الثاني (الكذب) بأن يكذب الإنسان على الناس. وهذه الآلية الدفاعية تقدم أسباباً مقبولة اجتماعياً لما يصدر عن الإنسان من سلوك وهو يخفي وراءه حقيقة الذات.

وهذا النوع من التبرير قد يقع فيه المسلم- كما سيأتي من قصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه-

أصل تبرير الخطأ.

وقد بينا آنفا، أن الاعتراف بالخطأ فضيلة، وهو نوع من أنواع التبرير المقبول، وأن أول من فعل ذلك أبونا آدم وأمنا حواء عليهما السلام، وعلى النقيض من فعلهما، كان أول تبرير غير مقبول رفيقهما في القصة، إبليس لعنة الله، حيث أبى أن يسجد لآدم لما أمر بالسجود له، ولما أنكر عليه ربه كان التبرير غير المقبول، فاستحق الطرد من الجنة، واللعن إلى يوم الدين، فاجتمع في قصتهم نوعا التبرير المقبول وغير المقبول، ليلزم المسلم الأول، ويتأسى بأبويه ويجتنب الثاني، ويهجر فاعله. قال تعالى: «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ» (الأعراف ١٢).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.



قصة الجنين الذي لبث في بطن أمه أكثر من سنتين

الحلقة (١٨٨)

نواصل في هذا التحذير تقديم البحوث العلمية الحديثية للقارئ الكريم حتى يقف على حقيقة هذه القصة التي أخرجتها كتب السنة الأصلية وبُنيت عليها آراء فقهية مما أدى إلى اشتهارها وانتشارها في كتب الفقه، والى القارئ الكريم التخريج والتحقيق:

إعداد / علي حشيش

أولاً: أسباب تخريج وتحقيق القصة:

١- إن قصة الجنين الذي لبث في بطن أمه أكثر من سنتين والتي سنبين حقيقتها حيث بُنيت عليها آراء فقهية تولد عنها شر عظيم بارتكاب الفحشاء من بعض النساء بعد وفاة زوجها وحملها وادعاء أن ذلك كان من زوجها ولو مضى على وفاته أكثر من سنتين.

٢- وأخرى سافر زوجها للعمل في بعض البلاد وغاب عنها سنتين، ثم عاد فوجدها حبلى فادعت أن هذا الحمل منه، وجاء لها البعض بآراء فقهية بأن مدة الحمل قد تصل إلى أربع سنين وآراء أخرى تصل فيها مدة الحمل خمس سنين، تلك الآراء بُنيت على قصص واهية لا يعرف عللها إلا أهل الصنعة الحديثية، ولقد تبين بعد ذلك أنها حملت من سفاح كذلك، والتي مات عنها زوجها، انظر لو لم يتبين ذلك لورث من لا حق له ولعاد الغائب ليربي زرع غيره.

٣- ومن الأسباب أيضًا التي تقتضي منا تحقيق هذه القصة أنه في ١٩ جمادى الآخرة عام ١٣٦٤هـ قضى أحد القضاة بالمحكمة الشرعية بإحدى البلاد الإسلامية- ولا يهمنا ذكر اسم القاضي ولا ذكر اسم البلد بقدر ما يهمنا الحكم؛ حيث قضى بإلحاق نسب طفل ولدته أمه بعد موت زوجها بخمس سنين بزوجها الميت، وحكم لأختها بلحوق طفلها بزوجها الذي طلقها قبل أربع سنوات.

٤- من الحقائق العلمية التي لا مرية فيها وهي من سنن الله الكونية في علم الأجنة والتي تبينها الأجهزة الطبية الحديثة والتي تحدد عمر الجنين بدقة والمراحل التي يمر بها في بطن أمه: «خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ» (الزمر:٦).

أن الجنين في هذه المراحل يعتمد في غذائه على المشيمة التي خلقها الله سبحانه، فإذا بلغ الحمل نهايته ضعفت المشيمة ولم تعد قادرة على إمداد الجنين بالغذاء الذي يحتاجه لاستمرار حياته، فإن لم تحصل الولادة عانى الجنين من المجاعة فإن طالت المدة ولم تحصل الولادة قضى نحبه داخل الرحم والأصل عدم امتداد الحمل عن المدة المعهودة التي قدرها الله سبحانه وهي تسعة أشهر.

٥- من سنن الله الكونية في عالم الأجنة أنه سبحانه قدَّر لكل أنثى مدة حمل جنينها في بطنها: «فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا» (فاطر:٤٣)، حتى أنثى الحيوانات فالإنسان العادي في مزرعته يعلم مدة الحمل

التي قدرها الله سبحانه في البقر والغنم ولم يجد لهذه السنة تبديلاً ولا تحويلاً.

فالواقع المعاصر يبدد وهم القائلين بامتداد الحمل عدة سنين، حيث يولد في العام الواحد عشرات الملايين من البشر، ولو فرضنا جدلاً وجود أمثال هذا الحمل لتناقلته وسائل الإعلام والأطباء، حيث إنهم يهتمون بنقل ما هو أقل من هذا الحدث بكثير.

هذه الأسباب توجب علينا تخريج وتحقيق هذه القصة الواهية

ثانيًا: المتن:

رُوي أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إني غبت عن امرأتي سنتين، فجئت وهي حُبلى، فشاور عمرُ الناس في رجمهَا، قال: فقال معاذ بن جبل: يا أمير المؤمنين، إن كان لك عليها سبيل، فليس لك على ما في بطنها سبيلٌ، فاتركها حتى تضعَ. فتركها، فولدت غلامًا قد خرجت ثُنياه، فعرف الرجلُ الشبه فيه، فقال: ابني وربِّ الكعبة، فقال عمرُ: عجزت النساءُ أن يلدنَ مثْلَ معاذٍ، لولا معاذ هَلَكَ عُمر. اهـ.

ثالثًا: التخريج:

لما كانت هذه الفتوى في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واغتر كثير بهذه الفتيا وجب تخريج وتحقيق هذه الفُتيا التي جاء بها هذا الخبر.

١- الخبر الذي جاءت به هذه القصة أخرجه الإمام الحافظ علي بن عمر الدارقطني في «السنن» (٣٢١/٣) (ح٣٨١٥) قال: حدثنا محمد بن نوح الجنديسابوري، حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، حدثنا ابن نمير، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان قال: حدثني أشياخ منا، قالوا: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب.. القصة.

٢- وأخرجه الإمام الحافظ البيهقي في «السنن» (٤٤٣/٧) قال: أخبرنا أبو بكر بن الحارث الفقيه الأصبهاني، أنبأنا علي بن عمر الحافظ (الدارقطني) به.

٣- وأخرجه الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢٥/٥٨) قال: أخبرناه أبو القاسم الشحامي، أخبرنا أبو بكر البيهقي به، وذلك في «ذكر من اسمه معاذ» ترجمة (٧٤٨١) «معاذ بن جبل».

٤- وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٥٤/٧) (ح١٣٤٥٤) عن سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن أشياخ لهم عن عمر به، وذلك في كتاب «الطلاق» باب «التي تضع لسنتين».

٥- وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٣/٩) (ح٢٩٣٩١) قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان عن أشياخه به، وذلك في كتاب «الحدود» باب «من قال: إذا فجرت وهي حامل انتظر بها حتى تضع..».

٦- وأخرجه سعيد بن منصور في «السنن» (٩٤/٢) (ح٢٠٧٦) قال: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش عن أبي سفيان، عن أشياخه به، وذلك في كتاب «الطلاق»، باب «المرأة تلد لستة أشهر».

قلت: من هذا التخريج يتبين أن الإمام الحافظ سعيد بن منصور (١٣٧-٢٢٧هـ) والإمام الحافظ أبا بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة (١٥٩-٢٣٥هـ) رَوَيَا عن أبي معاوية وهو محمد بن خازم التميمي السعدي أبو معاوية الضرير الكوفي والذي روى عن سليمان الأعمش وكما هو مبين في «تهذيب الكمال» (٥٧٦٠/٢٣٣/١٦) للإمام الحافظ المزي.

رابعًا: التحقيق:

إن قصة «الجنين الذي لبث في بطن أمه أكثر من سنتين واهية، والخبر الذي جاءت به غريب مسلسل بالعلل».

العلة الأولى: التدليس:

مما أوردناه آنفًا من التخريج وتجميع طرق هذا الخبر يتبين أن الخبر غريب لم يروه إلا أبو سفيان تفرد به عنه الأعمش وهو سليمان بن مهران.

١- وسليمان بن مهران الأعمش مدلس ولقد بين ذلك الحافظ ابن حجر في «النكت على كتاب ابن الصلاح» (٦٤٠/٢) فقال: «من أكثروا من التدليس وعرفوا به وهم: فذكر خمسة

وثلاثين مدلسًا منهم سليمان الأعمش».
٢- قال الإمام الذهبي في «الميزان» (٣٥١٧/٢٢٤/٢): «سليمان بن مهران الكاهلي الكوفي الأعمش ما نقموا عليه إلا التدليس». اهـ.
٣- وذكر الذهبي عن الجوزجاني قال: قال وهب بن زمعة المروزي: سمعت ابن المبارك يقول: «إنما أفسد حديث أهل الكوفة أبو إسحاق، والأعمش».
٤- قال الذهبي: «وهو- يعني الأعمش - وربما دلس عن ضعيف، ولا يدري به فمتى قال: «حدثنا» فلا كلام، ومتى قال: «عن» تطرق إليه احتمال التدليس إلا في شيوخ له أكثر عنهم: كإبراهيم، وأبي وائل وأبي صالح السمان؛ فإن روايته عن هذا الصنف محمولة على الاتصال. اهـ.
عدم انطباق هذه القاعدة على القصة:
إبراهيم هو ابن يزيد النخعي، وأبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي، وأبو صالح السَّمان هو ذكوان أبو صالح السمان، رواية الأعمش عنه محمولة على الاتصال، وهذه القاعدة لم تنطبق على الخبر الذي جاءت به القصة حيث يتبين من التخريج أن سليمان الأعمش لم يرو هذا الخبر إلا عن أبي سفيان ولم يصرح فيه بالسماع بل (عنعن) في جميع طرقه، قال الحافظ ابن حجر في «شرح النخبة» (ص٤٣): «وحكم من ثبت عنه التدليس إذا كان عدلاً لا يقبل منه إلا ما صرح فيه بالتحديث على الأصح». اهـ.
٥- ومن دقيق فقه الصناعة الحديثية في التدليس وما يتعلق بالأعمش: ما كان من رواية شعبة عن سليمان الأعمش، ففي طبقات المدلسين للحافظ ابن حجر (ص٨٨) نقل الحافظ عن البيهقي قوله في «المعرفة»: «وروينا عن شعبة أنه قال: كفيتكم تدليس ثلاثة: الأعمش، وأبي إسحاق، وقتادة».
قال الحافظ ابن حجر عقب إيراده لهذا القول: «فهذه قاعدة جيدة في أحاديث هؤلاء الثلاثة أنها إذا جاءت من طريق شعبة دلت على السماع ولو كانت معنعنة».

عدم انطباق هذه القاعدة أيضًا:
فلقد تبين من التخريج أن جميع طرق الخبر الذي جاءت به هذه القصة لم تكن من رواية شعبة عن الأعمش.
وبتطبيق هذه القواعد الثلاثة تصبح رواية الأعمش لهذا الخبر مردودة لتدليسه:
١- لأنه عنعن ولم يصرح بالسماع في أي طريق كما هو مبين من التخريج.
٢- هذا الخبر لم يكن من رواية الأعمش من شيوخه الذين أكثر عنهم كما بينا آنفًا.
٣- هذا الخبر لم يكن من رواية شعبة عن الأعمش كما بينا آنفًا.
وبعدم توافر هذه الشروط كما هو مبين في قواعد أئمة الجرح والتعديل يصبح هذا الخبر فاسدًا كما هو مبين من قول ابن المبارك آنفًا.
وهذه القواعد عالج بها طبيب الحديث في علله الإمام البخاري تدليس الأعمش عندما يعنعن في صحيحه فتراه في كتاب «الإيمان» باب «ظلم دون ظلم» يأتي بحديث واحد لهذا الباب (ح٣٢) قال: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا شعبة عن سليمان (الأعمش) عن إبراهيم...».
فيظن من لا دراية له بالصناعة الحديثة أن الإمام البخاري روى للأعمش في صحيحه بالعنعنة وهو مدلس كما يزعم الرويبضة في القنوات الفضائية لجهله بهذه القواعد، فالحديث من رواية شعبة عن سليمان الأعمش فهي قاعدة قوية تمحو تدليس الأعمش، والحديث من رواية الأعمش عن إبراهيم النخعي وهي قاعدة أخرى يمحو بها البخاري تدليس الأعمش، هذا عندما يذكر الحديث بالعنعنة للأعمش المدلس.
والبخاري رحمه الله عندما يذكر الحديث من غير رواية شعبة الذي كفانا تدليس الأعمش تجده يصرح بالتحديث للأعمش كما في الحديث (٣٣٦٠) قال: حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش قال: حدثني إبراهيم.
وهنا أيضًا قاعدتان لمحو تدليس الأعمش: التصريح بالسماع ورواية الأعمش عن إبراهيم

هذا هو البخاري أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله وهو يعالج تدليس الأعمش في صحيحه إذا عنعن.

وهذه الصناعة الحديثية لم توجد في رواية الأعمش للخبر الذي جاءت به هذه القصة «قصة الجنين الذي لبث في بطن أمه أكثر من سنتين»، ففسد الخبر كما بينا آنفًا.

علة أخرى:

العلة الثانية: أبو سفيان:

وهو الذي انفرد برواية هذا الخبر ولم يروه عنه إلا الأعمش:

١- والأعمش كما بينا أكثر من التدليس وعرف به حتى قال ابن المبارك أفسد حديث أهل الكوفة هذا بالنسبة لرواية الأعمش إذا لم تعالج بالقواعد الثلاثة التي بيناها.

٢- أما بالنسبة لرواية الأعمش عن أبي سفيان فهناك علة خفية بينها الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (١٩٦/٤) فقد نقل عن أبي بكر البزار قوله: «لم يسمع سليمان الأعمش من أبي سفيان شيئًا، وقد روى عنه نحو مائة حديث وإنما هي صحيفة عرفت». اهـ.

وأقر الحافظ ابن حجر هذا الإرسال الخفي ومن حاول أن يزحزح الأعمش عن هذا الإرسال الخفي في روايته عن أبي سفيان خاصة- وما هو بمزحزحه- وقع في تدليس الأعمش عامة كما بينا آنفًا.

٣- وأبو سفيان: هو طلحة بن نافع الواسطي قال الحافظ الذهبي في «الميزان» (٤٠١٢/٣٤٢/٢): «أخرج له البخاري مقرونًا بغيره». اهـ. ولم يرو له احتجاجًا ثم نقل الذهبي عن أحمد بن زهير قوله: «سئل عنه ابن معين فقال: لا شيء». اهـ. ونقل عن ابن المديني قوله: «كانوا يضعفونه في حديثه». اهـ.

ثم قال الذهبي: «سئل أبو زرعة عنه فقال: أتريد أن أقول هو ثقة؟ الثقة سفيان وشعبة». اهـ.

علة ثالثة:

حيث إن هذا الخبر الذي جاءت به القصة انفرد به أبو سفيان، ولم يروه عنه إلا الأعمش، ورواه أبو سفيان عن مجاهيل، فقال: «حدثني أشياخ منا»، قالوا: جاء إلى عمر بن الخطاب، كما هو مبيَّن من التخريج في جميع طرق القصة، وهذا النوع من المجهول يسمى: «المبهم»، قال البيقوني في «منظومته»: «وَمُبْهَمٌ مَا فيه رَاوٍ لم يُسَمَّ».

قال الحافظ ابن حجر في «شرح النخبة» النوع (٣٩): «ولا يُقبل حديث المُبهم ما لم يُسَمَّ لأن شرط قبول الخبر عدالة راويه، ومن أبهم اسمه لا تُعرف عينه، فكيف تعرف عدالته». اهـ.

قُلْتُ: فالقصة بهذه العلل الثلاثة تصبح واهيةً، والخبرُ ساقطٌ.

خامسًا: تحقيق الإمام ابن حزم:

١- لقد أخرج هذا الخبر الذي جاءت به القصة الإمامُ الفقيه الأصولي أبو محمد علي بن أحمد بن حزم في «المحلى» (٤٠٥/١٠) من طريق عبد الرَّزاق الذي بيَّناه آنفًا في التخريج، ثم قال: «وهذا أيضًا باطلٌ؛ لأنه عن أبي سفيان- وهو ضعيف- عن أشياخ لهم، وهم مجهولون». اهـ.

٢- ثم قال الإمام ابن حزم: «ولقد قال أبو حنيفة: يكون الحمل سنتين، واحتج له أصحابه بحديث فيه الحارث بن حصيرة- وهو هالك- أن ابن صيَّاد وُلد لسنتين- وهذا كذبٌ باطلٌ- وابن حصيرة هذا شيعيٌّ يقول برجعة عليٍّ إلى الدنيا.

قُلت: ونقل الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (١٢١/٢) عن العقيلي قوله: «الحارث بن حصيرة له غير حديث منكر لا يُتابع عليه، منها حديث أبي ذر في ابن صياد، وقال الأزدي زائغ». اهـ.

٣- ثم قال الإمام ابن حزم: وقالت طائفة: يكون الحمل أكثر من أربع سنوات: رويناه عن سعيد بن المسيب من طريق فيها علي بن زيد بن جدعان- وهو ضعيف- وهو قول الشافعي-، ولا نعلم لهذا القول شبهة تعلقوا بها أصلاً».

قلتُ: وعلي بن زيد بن جدعان قال أئمة الجرح والتعديل: واهي الحديث لا يُحتج بحديثه، ليس بشيء، كان يغلو في التشيع، يهم ويخطئ، وكثر ذلك منه فاستحق الترك». كذا نقله عنهم الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (٢٨٤/٧).

هذا ما وفقني الله إليه وهو وحده من وراء القصد.

قرائن اللغة والنقل والعقل على حمل صفات الله (الخبرية) و(الفعلية) على ظاهرها دون المجاز

الحلقة (٢٢)

تقديم النقل لدى أهل السنة ليس منشؤه التعارض مع العقل.. وإنما كون النقل أصلاً لما صح من جميع المعقولات، وكونه المخبرَ عن مراد الله من عباده بما لا تطيقه عقولهم ولا تدركه

إعداد/ أ.د. محمد عبد العليم الدسوقي
الأستاذ بجامعة الأزهر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

فبعد أن رددنا - بما تيسر من الأدلة - فرية الأشاعرة في قولهم بإمكانية تعارض العقل مع النقل، كان لزاماً أن نرد ادعاءاتهم تقديم العقل على النقل - على التنزل وفرضية حدوث التعارض فيما بينهما أصلاً - وبخاصة في تأويل صفات الله الخبرية والفعلية.. ونقول بعد توفيق الله تعالى:

إن أمر تقديم العقل محال ويرده العقل السوي بما يلي:

أولاً: إن القول بأنه (إذا تعارض العقل والنقل، قدِّم العقل وأوِّل النقل)؛ أمر فيه مغالطة.. ذلك أن قولهم في إحالة العقل للصفات الخبرية والفعلية: (إن قدمنا النقل، بطل العقل وهو أصل النقل ولزم الطعن في هذا الأصل)، ممنوع.. لأنهم إن أرادوا بذلك: جعل العقل أصلاً في ثبوت النقل في نفس الأمر، فهذا لا يقول به عاقل، لأن النقل ثابت في نفس الأمر وليس موقوفاً على علمنا به، فعدم علمنا بالحقائق لا ينافي ثبوتها في نفس الأمر، فما أخبر به الصادق المصدوق رضي الله عنه هو ثابت في نفسه، سواء علمناه بعقولنا أم لم نعلمه، وسواء صدَّقه الناس أو لم يصدقوه، كما أن رسول الله حقٌّ وإن كذبه بعقله من كذبه.

وكما أن وجود الله وثبوت أسمائه وصفاته حق سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه، فلا يتوقف ذلك على وجودنا فضلاً عن علومنا وعقولنا، لأن الشرع المنزل من عند الله مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا، ولكن نحن المحتاجون إليه والى أن نعلمه، فإذا علم العقل ذلك حصل له كمال لم يكن قبل ذلك، وإذا فقده كان ناقصاً جاهلاً.. وإن أرادوا به: أن العقل أصل في معرفتنا بالنقل ودليل على صحته، قيل لهم: ليس كل ما يعرف بالعقل يكون أصلاً للنقل ودليلاً على صحته، فإن المعارف العقلية أكثر من أن تحصى، والعلم بصحة السمع يتوقف على ما به يُعلم صدق الرسول من العقليات، وليس كل العلوم العقلية يُعلم بها صدقه عليه السلام، بل إن ذلك يعلم بالبراهين والآيات الدالة على صدقه.. فعُلم بذلك أن جميع المعقولات ليست أصلاً للنقل، لا بمعنى توقف العلم بالنقل، عليها؛ ولا بمعنى توقف ثبوته في نفس الأمر عليها، كما عُلم أنه لا يلزم من تقديم السمع على المعقول في الجملة، القدح في أصله.. كذا في الصواعق المرسلة ص ٩٩: ١٠٢ ودرء التعارض ٨٨/١.

ثانياً: أن ما جنحوا إليه من أن (تقديم النقل على العقل يتضمن القدح في العقل والنقل معاً)؛ ليس صحيحاً وإنما العكس هو الصحيح.. لأن العقل قد صَدَّق الشرع، ومن ضرورة تصديقه له: قبول خبره.. وأيضاً لأن العقل قد شهد الشرع والوحي بأن النقل أعلم منه، وأن نسبة علوم العقل ومعارفه إلى الوحي، أقل من خردلة بالإضافة إلى جبل، فلو قدم حكم العقل عليه لكان ذلك قدحاً في شهادته، وإذا بطلت شهادته بطل قبول قوله، ذلك أن الشرع فضلاً عن أنه مأخوذ عن الله بواسطة رسوليه: الملك والبشر، هو كذلك مؤيَّدٌ بشهادة الآيات وظهور البراهين؛

على ما يوجبه العقل ويقتضيه تارة، وعلى ما يستحسنه تارة، وعلى ما يجوِّزه تارة ويَضعُف عن دركه تارة.

ومن ثم فلا سبيل إلى الإحاطة بمرامي الشرع، ولا مناص من التسليم له والانقياد لحكمه والإذعان والقبول به.. وبخاصة أن العقول تتفاوت وتختلف في نظرتها إلى الأشياء حُسناً وقبحاً، فما يراه عاقل خيراً يراه غيره شراً، ولذلك تتعارض المذاقات وتشتعل الاختلافات، فلو أخذت أمور الدين بالعقل بدعوى تعارض الأدلة أو ظنيتها، لما اتفق اثنان على شيء، ومن هنا كانت رحمة الله بعباده أن جعل السيادة في الأحكام الشرعية التكليفية من واجبات ومستحبات ومحرمات ومكروهات - ومثيلها في باب الاعتقاد: ما جاء به الخبر عن الله تعالى من صفات وسمعيات - للنقل، فهو وحده الذي يَحكم بحسن الأشياء وقبحها وبثبوتها ونفيها، والعقل فيها تابع للنقل يؤيده ويعضده..

والقول بعكس ذلك أو غيره، من شأنه حتماً أن يُغير ملامح الشريعة ويَنشرَ البدع والإلحاد بين الناس ويجعل الدين ألعوبة في يد كل صاحب هوى متبع أو معجب برأيه من كل مَن هب ودب كما هو الحاصل الآن.

فانحصر استخدام العقل إذن، في المباحات من أمور الدنيا وفي المصالح المرسلة وأمور السياسة الشرعية والدولية التي ليست فيها نصوص صريحة أو أدلة قطعية، فتلك فقط هي التي يجب فيها إعمال العقول وفي إطار من الالتزام بالقواعد العامة لأحكام الشريعة ومراعاة المصالح والمفاسد.. وهذا ما أمر به الرسول وعلَّمنا إياه في نحو قوله لأصحابه - وقد رآهم يلقحون النخل ونصحهم ألا يفعلوا فنقصت -: (أنتم أعلم بشئون دنياكم).. وقوله - لمن أشار عليه من أصحابه أن ينزل بأدنى ماء بـ (بدر)، وقد سأله أوحي هو؟ -: (بل هي الرأي والحرب والمكيدة).. وكذا أخذه برأي سلمان في حفر الخندق.. إلخ، أما ما عدا ذلك من أمور الأحكام والاعتقاد، فالأمر فيه على ما ذكرنا.

ثالثاً: أنه ليس في القرآن صفة إلا وقد دل العقل الصريح على إثباتها لله، حيث لا يمكن أن يعارض ثبوتها دليل صحيح البتة لا عقلي ولا سمعي على ما تقرر في تواطؤ دليلي العقل والسمع وتآخيهما، وعليه فيقال لمن زعم أن من الصفات ما هو مناف للعقل فتأوله، دون ما سواه من صفات المعاني: إنَ تأولتَ الجميع وحملته علي خلاف حقيقته، كان ذلك عناداً ظاهراً وجحداً لربوبيته.

فإن قلتَ أثبتُ للعالم صانعاً ولكن لا أصفه بصفة تقع على خلقه، وحيث وُصف بما يقع على المخلوق تأولتُه، قيل لك: فهذه الأسماء الحسني والصفات التي وصف الله بها نفسه، هل تدل على معانٍ ثابتة هي حق في نفسها أو لا تدل؟، فإن نفيتَ دلالتها على معني ثابت كان ذلك غاية التعطيل، وإن أثبتَ قيل لك: فما الذي سوغ لك تأويل بعضها دون بعض، ودلالة النصوص على أن له سمعاً وبصراً وعلماً وقدرةً وإرادة وحياة وكلاماً، كدلالتها على أن له محبة ورحمة وغضباً ورضاً وفرحاً وضحكاً ووجهاً ويدين؟!، فإن قلتَ: إن إثبات الإرادة والمشيئة لا تستلزم تشبيهاً وتجسيماً، وإثبات حقائق هذه الصفات يستلزم التشبيه والتجسيم.. قيل لك: جميع ما أثبتَه من الصفات إنما هي أعراض قائمة بالأجسام في الشاهد، فإن قلتَ: أنا أثبتُها على وجه لا يماثل صفاتنا ولا يشبهها، قيل لك: فهلا أثبتَ الجميع على وجه لا يماثل صفات المخلوقين؟!.

ثم إن كان ظاهر النصوص يقتضي تشبيهاً وتجسيماً، فهو يقتضيه في الجميع فأوِّل الجميع، وإن كان لا يقتضي ذلك لم يجز تأويل شيء منه، وإن زعمتَ أن بعضها يقتضيه وبعضها لا يقتضيه طولبتَ بالفرق بين الأمرين.. فإن تأول المتأول مثلاً (الوجه) بـ (الذات) لزمه في الذات ما يلزمه في الوجه، فإن لفظ الذات يقع علي القديم والمحدَث، وكذلك من تأول (الأصبع) بـ (القدرة)، فإن القدرة أيضاً صفة قائمة بالموصوف، وعَرَض من أعراضه ففرَّ من صفة إلي صفة، وكذلك من تأول (الضحك) بـ (الرضا) و(الرضا) بـ (الإرادة)، إنما فرَّ من صفة إلي صفة، فهلا أقر النصوص علي ما هي عليه ولم ينتهك حرمتها؟!.

ولم يبق بعدُ إلا واحد من أمرين: إما هذا النفي والتعطيل، وإما وصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، واتباع سبيل السلف الذين

هم أعلم الأمة بهذا الشأن نفياً وإثباتاً، وأشد تعظيماً لله وتنزيهاً له عما لا يليق بجلاله، فإن المعاني المفهومة من الكتاب والسنة لا تُرَدُّ بالشبهات، فيكون ردها من باب تحريف الكلم عن مواضعه، ولا يترك تدبرها ومعرفتها، فيكون ذلك مشابهة للذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، بل هي آيات بيناتٌ، دالة علي أشرف المعاني وأجملها، قائمة حقائقها في صدور الذين أوتوا العلم والإيمان إثباتاً بلا تشبيه وتنزيهاً بلا تعطيل، كما قامت حقائق سائر صفات الكمال في قلوبهم كذلك، فكان الباب عندهم باباً واحداً وعلموا أن الصفات حكمها حكم الذات، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات فكذا صفاته لا تشبه الصفات.. كذا أفاده ابن القيم في الصواعق المرسلة ص ١٠٢، ١٨: ٢٣، ٦٣.

رابعاً: أن غاية ما ينتهي إليه مدعو تقديم العقل أو معارضته للنقل في إثبات نصوص الصفات الخبرية والفعلية، أحد أمور أربعة: إما تكذيبها وجحدها، وهؤلاء خلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم..

وإما اعتقاد أن الرسل خاطبوا الخلق بما لا حقيقة له، وإنما أرادوا منهم التخييل وضَرب الأمثال وعبَّروا عن المعاني المعقولة بالأمور القريبة من الحس، وهؤلاء سلكوا طريق التشبيه والإلحاد في أسماء الله وصفاته ولا يقدرون على إقامة حجة على ملحد أبداً، لأنهم وإن خالفوهم في الفروع فقد وافقوهم في الأصل..

وإما اعتقاد أن المراد تأويلها وصرفها عن حقائقها بالمجازات والاستعارات كما يفعل الأشاعرة، وهؤلاء لم يكفهم أن تكلفوا لها وجوه التأويلات المستكرهة والتي هي إلى التحريف أقرب وأشبه منها بالتفسير، حتى أوهموا أن الرسول لم يبين الحق للأمة في خطابه لهم ولا أوضحه، بل خاطبهم بما ظاهره باطل ومحال وضلال واعتقاد خلاف الظاهر وحقيقته، وأنه لم يبين لهم الحق ولا هدى إليه الخلق..

وإما الإعراض عنها وعن فهمها وتدبرها واعتقاد أنه لا يُعلم ما أريد منها إلا الله، وهؤلاء الذين يزعمون أن طريقتهم هذه هي طريقة السلف، فاتهم أن ما اتهموا أنفسهم وسلف الأمة به مستلزم لأن يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص ولا أصحابُهم ولا التابعون لهم، وأن جميعهم يقرأ كلاماً لا يعقل معناه..

فلم يبق - بموجب القسمة العقلية - إلا إثبات حقائق الأسماء والصفات ونفي مماثلة الحوادث عنها، وتلك هي طريقة أصحاب الصراط السوي، ومذهبهم هدى بين ضلالتين: يثبتون له سبحانه الأسماء الحسنى والصفات العلى بحقائقها، ولا يكيفون شيئاً منها (ينظر الصواعق ص ٦٣، ١٢٢، ١٢٣).

خامساً: أنه وبناء على ما سبق، لو حدث تعارض في الظاهر بين العقل والنقل، فإن ذلك مرجعه لأحد سببين لا ثالث لهما: إما أن النقل لم يثبت فيُنسب مدعو التعارض إلى دين الله ما ليس منه، كالذين يتمسكون بأحاديث ضعيفة أو موضوعة، وينقلونها للناس دون تمحيص، وإما أن العقل لم يفهم النقل ولم يدرك مراد الله ولا خطاب رسوله رضي الله عنه منه على النحو الصحيح، كما شكك بعض المستشرقين في حديث الذبابة وحديث ولوغ الكلب في الإناء وأحاديث الشفاعة ونحوها.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام في درء التعارض ٣٩/٧: "وما أثبته السمع الصحيح لم ينفه عقل صريح، وحينئذ فلا يجوز أن يتعارض العقل الصريح والسمع الصحيح، وإنما يَظن تعارضَهما مَن غلطَ في مدلولهما أو مدلول أحدهما"، يعني: على نحو ما أوضحنا، ومنه يُعلم كذب مدعي العقلانية ومنكري غير صفات المعاني بحجة (مخالفة الله للحوادث)، من أن العقل أو إثبات صفة (المخالفة) بما يقضيه معقولهم، مفضيان أو قاضيان بنفي صفات الله الخبرية والفعلية.

افتئات العقل - في تأويل الصفات وعدم حملها على حقيقتها - على النقل:

ذلك أن الذين أرادوا من المتكلمين أن يجعلوا من النقل مطية للعقل، جرَّؤوا الكثيرين على أن يوجِّهوا آيات القرآن وأدلة السنة في غير مسارها الذي أنزلت من أجله أو بعيدًا عن

سياقاتها المحمولة عليها على وجهها الصحيح، كما فعل أصحاب المدرسة العقلية عندما وضعوا أنسقة فكرية في أذهانهم - كفروض يعملون على إثباتها - وغايتهم من ذلك: أن يجدوا بين الآيات والأحاديث ما يؤيد رأيهم ويدعم مذهبهم ولو بتعسف، فإن وجدوا في الأدلة ما يخالف مذهبهم، قاموا - وقد قلدهم الأشاعرة في ذلك - بتأويل الآيات والأحاديث تأويلاً لا تحتمله النصوص ولا يقوم على دليل واضح، أو قاموا برد الأحاديث الثابتة بالسند الصحيح بزعم أنها ظنية من رواية الآحاد التي لا تفيد بزعمهم أيضاً، اليقين في أمور الاعتقاد.

على أن من رسخ القاعدة الصحيحة القاضية بـ (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول)، إنما بناها على أصل وأساس صحيحين، وهو وجوب إعمال العقل والفكر فيما يؤدي إلى إظهار الدين والعمل بمقتضى النقل، والرد على المخالفين للكتاب والسنة.. وكان يمكن قبول كلام شيوخ الأشاعرة عندما عوَّلوا كثيراً على طريق العقل باعتبار أن الاقتصار على الدلائل النقلية لأهم أصول العقيدة الإسلامية مثل إثبات وجوده تعالى وصفاته، فضلاً عن أنه غير كاف لمن لم يؤمن بالوحي، هو كذلك مستلزم للدور المحال؛ لأن ثبوت النقل في هذه الأصول متوقف على ثبوت الوحي، وما كان ثبوت الوحي موقوفاً على ثبوته، لا يصح الاستدلال عليه بالنقل، لأن ذلك موجب لتقدم الشيء على نفسه وهو الدور المحال.. فكان العقل بهذا الاعتبار أصلاً للنقل وشاهداً على صدقه، وإهماله - إذا كانت دلالته قطعية - ورد مقتضاه، موجب لانهيار أصل النقل وللطعن في شاهده الذي لم يثبت إلا به، فيكون هذا إبطالاً للنقل.. أقول: كان يمكن لهذه القاعدة - مع ما عليها - أن تُقبل وتُسلم، لولا ما ذكرنا من أمر أولئك الذين غاب عنهم هذا الأصل وجعلوا النقل مطية للعقل في توجيه نصوص الوحي حسب أهوائهم.

فقد أضحينا نرى من يحاول - وباسم تجديد الخطاب الديني أحياناً - تغيير الأفكار الشرعية التي ورد بشأنها نصوص قطعية الثبوت والدلالة، كمن ينكر عقوبة المرتد.. ومن ينادي بمنع ختان الإناث.. ومن يتسلط على فريضة الجهاد بالشبهات أو يفهمه على غير وجهه.. ومن يطالب بتعطيل الحدود وأحكام الحجاب الشرعي وتعدد الزوجات والطلاق والإرث.. ومن يفسر القرآن بهواه..

ومن يرى بثاقب عقله أن هلاك أبرهة وأصحاب الفيل إنما كان بالجراثيم وبوباء الحصبة والجدري.. وأن نحو شق صدره رضي الله عنه ومعجزة إسرائه ومعراجه، أمور لم يعُد العقل يطيق قبولها.. ورأينا من ينكر السنة علانية وبكل تبجح.. ومن يستحل الربا والقينات والمعازف.. ومن يبيح السجائر للصائم في نهار رمضان..

ورأينا من يعتبر القرآن نصاً يخضع كسائر النصوص للنقد باعتباره كتاباً أدبياً.. ومن ينكر الشفاعة ومن ينكر عذاب القبر.. ومن يبيح لنفسه في أدبياته لأن ينال من العقيدة ومن الإسلام ومن رسول الإسلام بل ومن الذات الإلهية، معتبراً ذلك فكراً وحرية رأي وليس ازدراءً.. إلى غير ذلك مما يندى له الجبين، ويُعَدُّ جناية على الشريعة ولا يصدر عن صاحب دين.. بل وراح كل أصحاب هذه الأفكار - مع شنيع ما يرتكبونه وباسم الإبداع وحرية الفكر وتحرير العقل - يُلقبون بأفخم الألقاب والأوصاف وتعقد لهم الندوات والمؤتمرات، وتُفسح لهم وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة الطرق الموصدة باعتبارهم تحرريين أو مفكرين إسلاميين.. ولا ندري أين دور الأزهر من كل هذا؟، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبالجملة فليس لمسلم - بعد ما سبق ذكره - أن يقول: إني غير راض بحكمه تعالى بل بحكم العقل، فإنه متى رد حكم الله ورسوله فقد رد حكم العقل الصريح والنقل الصحيح معاً وعاندهما، والذين زعموا من قاصري العقول تعارضهما وأن العقل يجب تقديمه على السمع حينذاك، إنما أوتوا إما من جهلهم بحكم العقل: فظنوا ما ليس بمعقول معقولاً، وإما من جهلهم بمقتضى السمع: بنسبتهم إلى الرسول ما لم يقله، أو نسبتهم إليه ما لم يُرده بقوله، وإما لعدم تفريقهم بين ما يدرك من النصوص بالعقول وبين ما لا يدرك، فهذه أربعة أمور أوجبت لهم ظن التعارض بين السمع والعقل، على ما أفاده ابن القيم في الصواعق ص ٧٠.

وإلى لقاء آخر نستكمل الحديث.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مفهوم الأمانة في الإسلام

الحمد لله الذي أمر بأداء الأمانات، ورتب عليها جزيل العطايا والهبات، ونهى سبحانه عن المكر وسائر الخيانات، وأصلي وأسلم على سيدنا وأسوتنا وقدوتنا الصادق الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

إعداد/ عبده الأقرع

فالأمانة من الأخلاق الفاضلة، وأصل من أصول الدين، وهي ضرورية للمجتمع الإنساني، والأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة، فهي عمل لكل ما لله فيه طاعة، واجتناب كل ما له فيه مخالفة وعصيان، سواء كان ذلك في عبادة الله أو في معاملة عباده.

وقد أمر الله تعالى بأداء الأمانة فقال سبحانه: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ» (البقرة:٢٨٣)، وقال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» (النساء:٥٨).

وقد ضرب الله مثلاً لضخامتها، فأبان أنها تثقل كاهل الوجود كله فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بها، أو يفرط في حقها، فقال الله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» (الأحزاب:٧٢).

ومدح الله أهل الأمانة، ووعدهم الفردوس أعلى درجات الجنة، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (المؤمنون:٨- ١١).

وقال تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ» (المعارج:٣٢- ٣٥).

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأداء الأمانة، فقال صلى الله عليه وسلم: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». (صحيح الجامع: ٢٤٠).

وبيَّن صلى الله عليه وسلم أن حفظ الأمانة أثر كمال الإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا إيمان لمن لا أمانة له». (صحيح الجامع: ٧١٧٩).

وحذر الله تعالى من الخيانة، فقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» (الأنفال:٢٧).

وبين سبحانه وتعالى أن الخائن مبغوض، فقال تعالى: «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» (الأنفال:٥٨).

والنبي صلى الله عليه وسلم حذر من الخيانة وبين أنها من خصائص المنافقين، فقال عليه الصلاة والسلام: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». (متفق عليه).

وبين عليه الصلاة والسلام أن أداء الأمانة من أسباب دخول الجنة، فقال عليه الصلاة والسلام: «اضمنوا لي ستًا من أنفسكم، أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم،

وكفوا أيديكم». (السلسلة الصحيحة: ٤٢٣).

إذا علمت ذلك فاعلم أن الأمانة من الأخلاق الفاضلة وأصل من أصول الدين، وهي ضرورية للمجتمع الإنساني، والأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة، فهي عمل لكل ما لله فيه طاعة، واجتناب كل ما له فيه مخالفة وعصيان، سواء كان ذلك في عبادة الله أو في معاملة عباده.

فالصلاة أمانة عندك: مطلوبٌ منك أن تؤديها في وقتها إن لم يكن عذر شرعي كاملة غير منقوصة مستوفية لفرائضها وأركانها وشروطها وسننها وأدائها بقلب مملوء من الخشوع والخضوع.

والزكاة أمانة عندك: مطلوب منك أن تؤديها في وقتها كاملة غير منقوصة إذا اجتمعت الشروط، طيبة بها نفسك لكلي تطهر مالك وتزكي نفسك وتبرأ منك ذمتك وتسلم من عقوبتها.

والصيام أمانة: مطلوب أن تصوم وأن تصون صيامك عما يفسده وأن تتحرى الحلال للسحور والفطور، وألا يفكر عقلك إلا في الخير ولا ينطق لسانك إلا حسنًا، ولا تسمع أذناك إلا طيبًا، ولا تنظر عينك إلا مباحاً، ولا تمدَّ يدك إلا إلى إصلاح، ولا قدمُك إلا في طاعة ومعروف.

والحج أمانة لله في عنقك: إن كنت ممن توفرت لديه الشروط وهي الإسلام والحرية والبلوغ والعقل والاستطاعة وتزيدُ المرأة شرطًا سادسًا وهو وجودُ محرم لها.

وعليه: فإنه ينبغي للإنسان أن يستحضر في كل ساعة وفي كل نظرة ولفتة وفي كل إشارة وعبادة وفي كل حركة وسكون أنه مطالبٌ بالأمانة فلسانك أمانة عندك إن حفظته من الكذب والغيبة والنميمة والسخرية بعباد الله والقذف والفحش ونحو ذلك مما نهى عنه الشرع واستعملته في تلاوة كلام الله والباقيات الصالحات، فقد حفظت هذه الأمانة.

الأذن أمانةٌ، إن جنبتها استماع المحرمات من الغيبة والملاهي والغناء وغير ذلك مما نهى الله عن استماعه، واستعملته في استماع ما يعود نفعه عليك في الدنيا والآخرة فقد حفظت هذه الأمانة.

ورجلك أمانة عندك إن استعملتها بالمشي إلى ما أمر الله به وحجزتها عن السير إلى ما نهى الله عنه فقد حفظتها.

وكذلك الفرج: إن جنبته الزنا واللواط والاستمناء باليد وكل ما نهى الله عنه، واستعملته فيما أباحه لك الشرع فقد حفظته، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» (المؤمنون:٥-٧).

وكذلك العقل: إن استعملته فيما يعود عليك بالسعادة دنيا وأخرى ولم تستعمله في المكر والدهاء وخداع المسلمين والكيد لهم ونحو ذلك فقد حفظته.

ومن معاني الأمانة: وضع كل شيء في مكانه اللائق به، والجدير له، فلا يُسْنَد منصبٌ إلا لمن ترفعه كفايته له، أما من يعجز عن القيام به فلا يجوز إسناده إليه. فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي قَالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا. (مسلم: ١٨٢٥).

والأمةُ التي لا أمانة لها هي التي تنتشر فيها الرشوة وتعمل على إهمال الأكفاء وإبعادهم وتقديم الذين ليسوا أهلاً للمناصب، وهذا من علامات الساعة إذا وقع.

ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً سأله: متى الساعة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ. (البخاري: ٥٩).

ومن معاني الأمانة: أن يحرص الإنسان على أداء واجبه كاملاً في العمل الذي يُناط به وأن يستنفد جهده في تكميله وتحسينه وأن يفي بجميع ما اتفقا عليه عملاً ووقتًا، ومن ثم فالموظفون أمانتهم في وظائفهم أن يقوموا بها على الوجه المطلوب، وألا يتأخروا في أعمالهم أو يتشاغلوا بغيرهم إذا حضروا مكان العمل، وألا يتعدوا في أمر لا يعينهم، فإن «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». (الترمذي: ٢٣١٨).

إن بعض الموظفين يخدعون أنفسهم حينما يحسبون أن التقصير في أداء واجبهم ليس جُرمًا وبأن هذه الأنظمة ليست أمورًا دينية أو أن الأجرة أو الراتب الذي يأخذه من بيت المال لا يكافئ العمل

ونحو ذلك، وهذه خدعة يغترون بها، فإن الراتب الذي يأخذه من بيت المال إنما تستحقه في مقابلة عمل فإن قمت بالعمل كان الراتب حلالاً لك، وإلا فما الذي يحلله لك ويحرمه على الآخرين الذي ليسوا في وظيفة؟

فاتق الله أيها المسلم وقم بما يلزمك نحو وظيفتك طاعة لله وإتقانًا للعمل وإبراء للذمة وتحليلاً لراتب وظيفتك. (الضياء اللامع ص٦٠٦ للشيخ ابن عثيمين).

وإن من واجب الأمانة في الوظيفة ألا تقدم معاملة أحد على أحد أولى منه لأنه قريبك أو صديقك أو أهدى إليك هدية أو دفع إليك رشوة أو ترجو منه أن يسهل لك مهمة أخرى من قِبله.

ومن الأمانة: ألا يستغل الإنسان منصبه الذي عُين فيه لجر منفعة له أو إلى قريبه.

ومن معاني الأمانة: حفظ الأسرار التي لا يرضى أهلها أن تذاع، فكم من أضرار على الأبدان والأموال والأعراض حصلت بإفشاء الأسرار.

ومما يتعين كتمه وستره ما يجري بين الرجل وامرأته مما يُفضي به أحدهما إلى الآخر فإن التحدث به خيانة لهذه الأمانة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة: الرجل يُفضي إلى المرأة، وتفضي إليه، ثم ينشر سرَّها». (مسلم: ١٤٣٧).

وعن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجال والنساء قعودٌ عنده، فقال: «لعل رجلاً يقول ما فعل بأهله ولعل امرأة تُخبر بما فعلت مع زوجها فأزَمَّ القوم- أي سكتوا وجلين- فقلت: أي والله يا رسول الله، إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن، قال: «فلا تفعلوا فإنما مثل ذلك شيطان لقي شيطانة فغشيها والناس ينظرون». (أبو داود: ١/٣٣٩).

فإلى الله المشتكى مما يحدث بين الموظفين والموظفات، فإن أفواههم لا تُفض من الكلام في هذه الأمور قتلاً للوقت وإذهابًا للملل.

وكذلك الكيل والوزن أمانة إن أداه على الوجه المطلوب بلا بخس ولا غش فقد حفظها وأداها، وإن بخس أو غش أو دلس فقد خان أمانته.

وكذلك أولادك أمانة عندك إن أحسنت فيهم وربيتهم تربية صالحة ووجهتهم توجيهًا حسنًا لا سيما في الوقت الذي تكثر فيه الفتن وتشتد فيه المنكرات، فإن الأمانة تحتم عليهم الرقابة أكثر مما إذا خفت الفتن وقلت المنكرات ألسنا في أموالنا إذا كثرت السرقة وكثرت الخيانة نتحفظ فيها أكثر ونطلب لها المكان الأحرز؟ فكذلك يجب علينا في أولادنا بل ملاحظة أولادنا أوجب علينا من ملاحظة المال لما في إهمالهم من الخطر علينا وعلى أنفسهم وعلى الأجيال المقبلة كلها إن أولادنا وليس أموالنا هم الذين يصحبوننا في الجنة إذا تبعونا في الإيمان، قال الله تعالى: «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» (الطور: ٢١).

إن كل واحد من الناس لا يرضى أن يكون منعمًا في الجنة وأولاده معذبين في النار، إننا نجزم أن الشخص لو رأى النار في الدنيا تأكل ولده أو قريبه لسعى بكل جهده في دفعها عنه، أفلا يعقل ويقيس كيف يرى ولده يسعى في المعاصي التي هي أسباب دخول النار ثم لا يبالي بذلك مع أن إهماله يوجب أن يعذب عليه لأنه عاص لله. (الضياء اللامع للشيخ ابن عثيمين ص٦٠٧).

قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» (التحريم: ٦).

وكذلك العلم أمانة في عنق العالم يسأله عنه يوم القيامة، إذا لم ينشره بين الناس وينور به قلوبهم يكونُ خائنًا لأمانته وغاشًا لإخوانه، قال الله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ» (البقرة: ١٥٩).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزولا قدما عبد حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه». (الترمذي: ٢٤١٩، وصحيح الجامع: ٧١٧٧).

ومن الأمانة في العلم أنك إذا سئلت عن مسألة خافيًا عليك حكمها أن تقول: لا أدري غير مستنكف ولا مبال بما يكون لها من أثر عند السائلين والمستمعين، ولأن يُقال سُئل فقال لا أدري

خيرٌ من أن يقال سئل فأجاب خطأ. وقديمًا قيل:

ومن كان يَهْوي أن يُرى متصدرًا
ويكره لا «أدري» أُصيبت مقاتلُهُ

والاختبارات أمانة حين المراقبة فعلى المراقب أن يراعي تلك الأمانة التي ائتمنته عليها إدارة المدرسة ومن ورائها وزارة أو رئاسة، وفوق ذلك دولة بل ائتمنه عليها المجتمع كله، فعلى المراقب أن يكون مستعينًا بالله يقظا في رقابته مستعملاً حواسه السمعية والبصرية والفكرية، يسمع وينظر ويستنتج من الملامح والإشارات، على المراقب أن يكون قويًا لا تأخذه في الله لومة لائم يمنع أي طالب من الغش أو محاولة الغش لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من غش فليس منا». (صحيح الجامع: ٦٢٨٢).

وتمكين الطالب من الغش ظلم لزملائه الحريصين على العلم المجدين في طلبه الذين يرون من العيب أن ينالوا درجة النجاح بالطرق الملتوية، إن المراقب إذا مكن أحدًا من هؤلاء المهملين الفاشلين في دراستهم إذا مكنهم من الغش فأخذ درجة نجاح يتقدم بها على الحريصين المجدين، كان ذلك ظلمًا لهم وكان كذلك ظلمًا للطالب الغاش وهو في الحقيقة مغشوش حيث انخدع بدرجة نجاح وهمية لم يحصل بها على ثقافة ولا علم، ليس له من ثقافته ولا علمه سوى بطاقة يحمل بها شهادة زيف لا حقيقة وإذا بحثت معه في أدنى مسألة مما تنبئ عنه هذه البطاقة لم تحصل منه على علم، إن تمكين الطالب من الغش خيانة لإدارة المدرسة وللوزارة التي من ورائها وخيانة للدولة وخيانة للمجتمع كله.

وإن تمكين الطالب من الغش أو تلقينه الجواب بتصريح أو تلميح ظلم للمجتمع وهضم لحقه حيث تكون ثقافته مهلهلة يظهر فشلها عند دخول ميادين السبق ويبقى مجتمعنا دائمًا في تأخر وفي حاجة إلى الغير وذلك لأن كل من نجح عن طريق الغش لا يمكن- إذا رجع الأمر إلى اختياره- أن يدخل مجال التعليم والتثقيف لعلمه أنه فاشل فيه، وإن تمكين الطالب من الغش كما يكون خيانة وظلمًا من الناحية العلمية والتقديرية يكون كذلك خيانة وظلمًا من الناحية التربوية لأن الطالب بممارسته الغش يكون مستسيغًا له هينًا في نفسه فيتربى عليه ويربي عليه أجيال المستقبل، «ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». (صحيح الجامع: ٦١٨١، ومسلم: ١٠١٧).

وكما يقال: «فاقد الشيء لا يعطيه»، إن على المراقب ألا يراعي شريفًا لشرفه ولا قريبًا لقربته ولا غنيًا لماله، إن عليه أن يراقب الله عز وجل الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

عليه أن يؤدي الأمانة كما تحملها لأنه مسئول عنها يوم القيامة ولربما قال مراقب إذا أديت واجب المراقبة إلى جنب من يضيع ذلك فقد أرى بعض المضايقات فجوابنا عليه أن نقول: اتق الله تعالى فيما وليت عليه واقرأ بقول الله تعالى: «وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا» (الطلاق:٢).

وقوله: «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا» (الطلاق:٤).

وقوله: «فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ» (هود:٤٩).

ومما يتعلق بأمانة الاختبارات التصحيح فإن المعلم الذي يقدر درجات أجوبة الطلبة ويقدر درجات سلوكهم هو حاكم بينهم لأن أجوبتهم بين يديه بمنزلة حجج الخصوم بين يدي القاضي فإذا أعطى طالبًا درجات أكثر مما يستحق فمعناه أنه حكم له بالفضل على غيره مع قصوره وهذا جور في الحكم وإذا كان لا يرضى أن يقدم على ولده من هو دونه فكيف يرضى لنفسه أن يقدم أولاد الناس من هو دونهم، وهذا كله خلاف العدل الذي أمر الله به ورسوله فإقامة العدل واجبة بكل حال على من تجب ومن لا تجب، فمن استحق شيئًا وجب إعطاؤه إياه، ومن لا يستحق شيئًا وجب حرمانه منه. (الضياء اللامع للشيخ ابن عثيمين ص٦٠٦).

وبالتالي فما من إنسان منا إلا وعمله أمانة لله في عنقه، فالشعب أمانة في يد الولاة للأمور، والدين أمانة في يد العلماء وطلبة العلم، والعدل أمانة في يد القضاة، والحق أمانة في يد المجاهدين، والصدق أمانة في يد الشهود، والمرضى أمانة في يد الأطباء، والتلميذ أمانة في يد الأستاذ، والولد أمانة في يد أبيه، والوطن أمانة في يد المجتمع، وهكذا باقي الأمانات.

فالأمانة سبيل السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

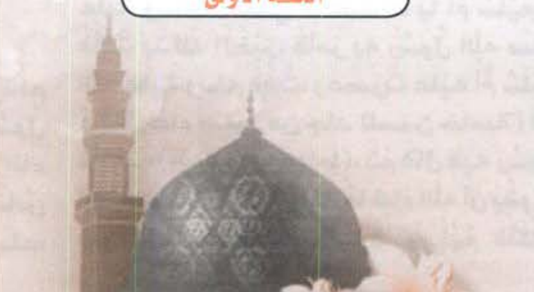
من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة الذي بلّغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

أما بعد: فإن الحديث عن معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم يؤدي إلى تقوية الإيمان في نفوس المسلمين، وقد أيد الله تعالى نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بمعجزات كثيرة، لتكون دليلاً على صدق رسالته إلى قيام الساعة. فأحببت أن أُذكّر نفسي وإخواني الكرام ببعض هذه المعجزات. فأقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد/ صلاح نجيب الدق

الحلقة الأولى



تعريف المعجزة:

المعجزة: أمرٌ خارقٌ للعادة يجريه الله تعالى على أيدي الأنبياء والمرسَلين، تأييداً لهم، وتحدياً لأقوامهم. (فتاوى ابن تيمية ج١١ صـ٣١١:٣١٢).

وسوف نذكر بعض معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم.

(١) القرآن الكريم:

يعتبرُ القرآن العظيم هو معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم الكبرى والباقية إلى قيام الساعة.

تعريف القرآن:

القرآن: هو كلام الله حقيقة، المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يقظة، لا مناماً، بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام. المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز بلفظه والمتحدى بأقصر سورة منه، المكتوب في المصاحف، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس. (أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ص٢٣).

فائدة مهمة: يجب أن نعتقد أن الله يتكلم كلاماً يليق بجلاله وعظمته دون تشبيه أو تمثيل أو تكييف أو تعطيل، وكل ما يدور بعقولنا. فكلام الله عز وجل بخلافه، قال الله تعالى في محكم التنزيل: (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) (الشورى: ١١).

(٢) الإسراء والمعراج:

قال الله تعالى عن الإسراء:(سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) (الإسراء:١).

وقال سبحانه عن المعراج: (وَٱلنَّجْمِ

إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ
(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ
فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ
قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا
كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ
نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ
يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ) (النجم: ١-١٨).

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ (وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ)، قَالَ: «فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ»، قَالَ: «فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ (حلقة باب مسجد بيت المقدس) الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ»، قَالَ " ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ صلى الله عليه وسلم: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عُرِجَ (صُعِدَ) بِنَا إِلَى السَّمَاءِ (مسلم حديث:١٦٢).

(٣) انشقاق القمر:

هذه معجزة ظاهرة رآها المشركون من أهل مكة جميعاً، لتكون حُجة عليهم.

قال الله تعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ
(١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢)
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ
(٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) (القمر: ١ - ٥).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ، حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ (اسم جبل) بَيْنَهُمَا» (البخاري حديث: ٣٨٦٨، ومسلم حديث: ٢٨٠٢).

(٤) نبع الماء من بين أصابع نبينا صلى الله عليه وسلم:

عَنْ سَالِم عَنْ جَابِرٍ صلى الله عليه وسلم قَالَ: عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ (إناء صغير من الجلد) فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا لَكُمْ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ بِهِ وَلَا نَشْرَبُ، إِلَّا مَا فِي رَكْوَتِكَ، قَالَ: «فَوَضَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ». قَالَ: فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا فَقُلْتُ لِجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً. (البخاري حديث: ٤١٥٢).

(٥) تكثير الطعام بين يدي نبينا صلى الله عليه وسلم:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ: قَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ضَعِيفًا أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخَذَتْ خِمَارًا لَهَا، فَلَفَّتِ الْخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ ثَوْبِي وَرَدَّتْنِي بِبَعْضِهِ (جعلت بعضه رداءً على رأسي)، ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ»، قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «أَلِطَعَامٍ؟»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِمَنْ مَعَهُ: «قُومُوا»، قَالَ: فَانْطَلَقَ، وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالنَّاسِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ، فَقَالَتْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَعَهُ حَتَّى دَخَلَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «هَلُمِّي مَا عِنْدَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟» فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَفُتَّ، وَعَصَرَتْ عَلَيْهِ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً (وعاء صغير من جلد للسمن خاصة) لَهَا فَأَدَمَتْهُ (جعلت فيه إداما)، ثُمَّ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ»، فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا

حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ»، فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» حَتَّى أَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ رَجُلًا أَوْ ثَمَانُونَ. (مسلم حديث: ٢٠٤٠).

(٦) رؤية نبينا صلى الله عليه وسلم لأصحابه من وراء ظهره:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ، وَتَرَاصُّوا، فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي». (البخاري حديث: ٧١٩).

قال الإمام النووي رحمه الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ لَهُ صلى الله عليه وسلم إِدْرَاكًا فِي قَفَاهُ يُبْصِرُ بِهِ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَدِ انْخَرَقَتِ الْعَادَةُ لَهُ صلى الله عليه وسلم بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا، وَلَيْسَ يَمْنَعُ مِنْ هَذَا عَقْلٌ وَلَا شَرْعٌ، بَلْ وَرَدَ الشَّرْعُ بِظَاهِرِهِ فَوَجَبَ الْقَوْلُ بِهِ. قَالَ الْقَاضِي عياض: قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: هَذِهِ الرُّؤْيَةُ رُؤْيَةٌ بِالْعَيْنِ حَقِيقَةً. (مسلم بشرح النووي جـ٢ صـ٣٨٥).

(٧) شكوى البعير لنبينا صلى الله عليه وسلم:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُخْبِرُ بِهِ أَحَدًا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ فِي حَاجَتِهِ هَدَفٌ (المكان المرتفع)، أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ (النخل الملتف المجتمع)، فَدَخَلَ يَوْمًا حَائِطًا مِنْ حيطان الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ قَدْ أَتَاهُ فَجَرْجَرَ (صوت البعير عند الغضب)، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَمَسَحَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَرَاتَهُ

(ظهره) وَذِفْرَاهُ (مؤخر رأسه)، فَسَكَنَ، فَقَالَ: مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَمَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَهَا اللَّهُ، إِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ (تجعله يتعب). (حديث صحيح: مسند أحمد جـ٣ صـ٢٧٤ حديث: ١٧٤٥)

(٨) إخبار الذئب بنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: عَدَا الذِّئْبُ عَلَى شَاةٍ، فَأَخَذَهَا فَطَلَبَهُ الرَّاعِي، فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ، فَأَقْعَى الذِّئْبُ عَلَى ذَنَبِهِ، قَالَ: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ، تَنْزِعُ مِنِّي رِزْقًا سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: يَا عَجَبِي ذِئْبٌ مُقْعٍ عَلَى ذَنَبِهِ، يُكَلِّمُنِي كَلَامَ الْإِنْسِ، فَقَالَ الذِّئْبُ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم بِيَثْرِبَ يُخْبِرُ النَّاسَ بِأَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ، قَالَ: فَأَقْبَلَ الرَّاعِي يَسُوقُ غَنَمَهُ، حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَزَوَاهَا إِلَى زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرَهُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَنُودِيَ الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ لِلرَّاعِي: أَخْبِرْهُمْ. فَأَخْبَرَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: صَدَقَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ، وَيُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ، وَشِرَاكُ نَعْلِهِ، وَيُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ بَعْدَهُ. (حديث صحيح: مسند أحمد ج١٨ ص٣١٥ حديث: ١١٧٩٢).

(٩) حنين الجذع شوقاً لنبينا صلى الله عليه وسلم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ»، فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى الْمِنْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ. قَالَ: «كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا». (البخاري حديث: ٣٥٨٤).

(١٠) انقياد الشجر لنبينا صلى الله عليه وسلم:

(١) عن جابر بن عبد الله قال: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم حَتَّى نَزَلْنَا وَادِيًا أَفْيَحَ (واسعاً)، فَذَهَبَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم يَقْضِي حَاجَتَهُ، فَاتَّبَعْتُهُ بِإِدَاوَةٍ (إناء) مِنْ مَاءٍ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يَرَ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِهِ، فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِئِ الْوَادِي(جانبه)، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم إِلَى إِحْدَاهُمَا، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: «انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ» فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ(عود يجعل في أنف البعير ويشد فيه حبل ليذل وينقاد)، الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ، حَتَّى أَتَى الشَّجَرَةَ الأُخْرَى، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: «انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّه» فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ(عند نصف المسافة) مِمَّا بَيْنَهُمَا، لأَمَ بَيْنَهُمَا- يَعْنِي جَمَعَهُمَا- فَقَالَ: «الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ الله» فَالْتَأَمَتَا، قَالَ جَابِرٌ: فَخَرَجْتُ أُحْضِرُ(أعدوا وأسعى سعياً شديداً) مَخَافَةَ أَنْ يُحِسَّ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم بِقُرْبِي فَيَبْتَعِدَ، فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي، فَحَانَتْ مِنِّي لَفْتَةٌ (النظرة إلى جنب)، فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم مُقْبِلاً، وَإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَدِ افْتَرَقَتَا، فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ. (مسلم حديث: ٣٠١٢).

(٢) عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ فَأَقْبَلَ أَعْرَابِي فَلَمَّا دنا مِنْهُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: تَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ وَمَنْ يَشْهَدُ عَلَى مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «هَذِهِ السَّلَمَةُ»(الشجرة) فَدَعَاهَا رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم وَهُوَ بِشَاطِئِ الْوَادِي(جانبه) فَأَقْبَلَتْ تَخُدُّ(تشق) الأَرْضَ حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَاسْتَشْهَدَهَا ثَلاَثًا،فَشَهِدَتْ ثَلاَثًا.قَالَ: ثُمَّ رجعتْ إلى منبتها. (حديث صحيح) (مشكاة المصابيح-تحقيق الألباني-جـ٣صـ١٦٦٦ حديث: ٥٩٢٥).

(٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ بِمَ أَعْرِفُ أَنَّكَ نَبِيٌّ؟ قَالَ: «إِنْ دَعَوْتُ هَذَا الْعِذْقَ مِنْ هَذِهِ النَّخْلَةِ تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله؟» فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَعَلَ يَنْزِلُ مِنَ النَّخْلَةِ حَتَّى سَقَطَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ قَالَ: «ارْجِعْ فَعَادَ»، فَأَسْلَمَ الأَعْرَابِيُّ. (حديث صحيح) (صحيح الترمذي للألباني-حديث:٢٨٦٨).

(١١) تسليم الحجر على نبينا صلى الله عليه وسلم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ»(مسلم حديث: ٢٢٧٧).

(١٢) كلام الشاة المسمومة لنبينا صلى الله عليه وسلم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم «يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلاَ يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ» حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ بَقِيَّةَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَنْ خَالِدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلاَ يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ» زَادَ: فَأَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً(مشوية) سَمَّتْهَا فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم مِنْهَا وَأَكَلَ الْقَوْمُ فَقَالَ:«ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ» فَمَاتَ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ الأَنْصَارِيُّ، فَأَرْسَلَ (النبي صلى الله عليه وسلم) إِلَى الْيَهُودِيَّةِ «مَا حَمَلَكِ عَلَى الَّذِي صَنَعْتِ؟» قَالَتْ: إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ، وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ، فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم فَقُتِلَتْ، ثُمَّ قَالَ: فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ «مَازِلْتُ أَجِدُ مِنَ الأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ فَهَذَا أَوَانُ(وقت) قَطَعَتْ أَبْهَرِي(عرق مرتبط بالقلب إذا انقطع مات الإنسان)» (حديث حسن صحيح) (صحيح أبي داود للألباني حديث:٣٧٨٤).

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الصلاةُ على رسول الله في الصلاة

(حكمها - ما يقال فيها)

إعداد/ د. حمدي طه

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

بدأنا في اللقاء السابق الحديث عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وتكلمنا أولاً عن مشروعية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة وأنه لا خلاف بين أهل العلم في مشروعيتها، وتكلمنا ثانياً عن مواضع الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة، وتكلمنا ثالثاً عن كيفية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة، ونكمل الكلام عن مسائل مهمة تتعلق بكيفية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

المسألة الأولى: هل يقال لفظ السيادة في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الصلاة؟

ليس في شيء من صيغ الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم لفظ: (السيادة) ولذلك اختلف المتأخرون في مشروعية زيادتها في الصلوات الإبراهيمية ولا يتسع المجال الآن لنفصل القول في ذلك.

قلت: واعلم أخي القارئ أن الأصل في الأذكار الواردة في العبادات الاقتصار على ما ورد دون زيادة أو نقصان لأنها توقيفية أما ما درج عليه كثيرون من قول (اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد... وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد...) بزيادة (سيدنا)، فإن هذا لا أصلَ له مُعْتَبراً، إذ هو لم يُنقل عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في أية رواية صحيحة أو حسنة، قال العلامة الألباني: وأنقل هنا رأي الحافظ ابن حجر العسقلاني في ذلك باعتباره أحد كبار علماء الشافعية الجامعين بين الحديث والفقه فقد شاع لدى متأخري الشافعية خلاف هذا التعليم النبوي الكريم.

فقال الحافظ محمد بن محمد بن محمد الغرابيلي وكان ملازماً لابن حجر-: (وسئل (أي الحافظ ابن حجر) عن صفة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة أو خارج الصلاة سواء قيل بوجوبها أو ندبيتها هل يشترط فيها أن يصفه صلى الله عليه وسلم بالسيادة كأن يقول مثلا: اللهم صل على سيدنا محمد أو على سيد الخلق أو على سيد ولد آدم أو يقتصر على قوله: اللهم صل على محمد وأيهما أفضل: الإتيان بلفظ السيادة لكونها صفة ثابتة له صلى الله عليه وسلم أو عدم الإتيان به لعدم ورود ذلك في الآثار.

فأجاب رضي الله عنه: نعم اتباع الألفاظ المأثورة أرجح ولا يقال: لعله ترك ذلك تواضعاً منه صلى الله عليه وسلم كما لم يكن يقول عند ذكره صلى الله عليه وسلم: (صلى الله عليه وسلم) وأمته مندوبة إلى أن تقول ذلك كلما ذكر لأنا نقول: لو كان ذلك راجحاً لجاء عن الصحابة ثم عن التابعين ولم نقف في شيء من الآثار عن أحد من الصحابة ولا التابعين لهم قال ذلك مع كثرة ما ورد عنهم من ذلك وهذا الإمام الشافعي- أعلى الله درجته وهو من أكثر الناس تعظيماً للنبي صلى الله عليه وسلم- قال في خطبة كتابه الذي هو

عمدة أهل مذهبه: (اللهم صل على محمد) إلى آخره ولم يذكر لفظ (سيدنا).

وقد عقد القاضي عياض باباً في صفة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٢/٦٣) ونقل فيها آثاراً مرفوعة عن جماعة من الصحابة والتابعين ليس في شيء منها عن أحد من الصحابة وغيرهم لفظ: (سيدنا).

قال العلامة عبد المحسن العباد:

لو كانت هذه الكلمة مطلوبة في التشهد ومطلوبة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لبينها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؛ لأنه يبين الألفاظ والصيغ التي يتعبد الله بها، وحيث لم يبينه النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لا يضاف إليه شيء آخر، وإنما يقتصر على الصيغة الواردة، كما يقتصر على الصيغة التي وردت في الأذان: أشهد أن محمداً رسول الله دون أن يضاف إليها سيدنا. وإطلاق السيد على الرسول صلى الله عليه وسلم جائز، وهو أحق البشر بذلك صلى الله عليه وسلم، ولكن كون الإنسان يلتزمه ولا يأتي بذكر الرسول صلى الله عليه وسلم إلا قال: سيدنا فهذا ما جاء عن سلف هذه الأمة من الصحابة الذين هم خير الناس، فنحن نقرأ في الأحاديث: حدثنا فلان حدثنا فلان أن فلاناً الصحابي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال: قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذه الأحاديث كثيرة بالآلاف، فهذا صحيح البخاري فيه أكثر من سبعة آلاف حديث، وصحيح مسلم كذلك، وكذلك سنن أبي داود، وغيرها من أمهات الحديث، ليس فيها: قال سيدنا رسول الله، نعم هو سيدنا؛ لكن استعمال هذه الألفاظ دائماً وأبداً والإكثار منها ما فعله خير هذه الأمة الذين هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم. (شرح سنن أبي داود للعباد).

قال العلامة الألباني-: والمسألة مشهورة في كتب الفقه والغرض منها أن كل من ذكر هذه المسألة من الفقهاء قاطبة لم يقع في كلام أحد منهم: (سيدنا) ولو كانت هذه الزيادة مندوبة ما خفيت عليهم كلهم حتى أغفلوها والخير كله في الاتباع وما ذهب إليه الحافظ ابن حجر رحمه الله من عدم مشروعية تسويده صلى الله عليه وسلم في الصلاة عليه اتباعاً للأمر الكريم وهو الذي عليه الحنفية هو الذي ينبغي التمسك به لأنه الدليل الصادق على حبه صلى الله عليه وسلم (﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾) (آل عمران: ٣١) (صفة الصلاة بتصرف).

لهذا فينبغي ترك لفظ: (السيادة) والاقتصار على المأثور، وإن أضاف هذه الزيادة عدد من الفقهاء بدعوى أن ذلك من حُسن التأدُّب مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم-. فقد جانبهم الصواب فيما قالوا، ذلك أن التأدب معه يكون بطاعته فيما شرعه لنا والاقتصار عليه.

المسألة الثانية: وهي أن النبي أفضل من إبراهيم فكيف طلب له من الصلاة ما لإبراهيم مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه فكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين؟

ساق ابن القيم أقوالاً كثيرة لبيان وجه التشبيه، وقد بلغت نحو عشرة أقوال بعضها أشد ضعفاً من بعض وبين أوجه الضعف فيها إلا قولاً واحداً استحسنه ابن القيم وهو قول من قال: (إن آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي صلى الله عليه وسلم ولآله مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء حصل لآل محمد من ذلك ما يليق بهم فإنهم لا يبلغون مراتب الأنبياء وتبقى الزيادة التي للأنبياء- وفيهم إبراهيم- لمحمد صلى الله عليه وسلم فيحصل له من المزية ما لا يحصل لغيره) ثم قال: وهذا أحسن من كل ما تقدمه وأحسن منه أن يقال محمد هو من آل إبراهيم بل هو خير آل إبراهيم كما روى علي بن أبي طلحة عن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: (﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾) (آل عمران ٣٣).

قال ابن عباس رضي الله عنهما محمد من

آل إبراهيم وهذا نص فإنه إذا دخل غيره من الأنبياء الذين هم من ذرية إبراهيم في آله فدخول رسول الله أولى فيكون قولنا كما صليت على آل إبراهيم متناولا للصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم، ثم قد أمرنا الله أن نصلي عليه وعلى آله خصوصا بقدر ما صلينا عليه مع سائر آل إبراهيم عموما وهو فيهم ويحصل لآله من ذلك ما يليق بهم ويبقى الباقي كله له (جلاء الأفهام- ابن قيم الجوزية ١/ ٢٩٠ بتصرف)، وقد مال العلامة الألباني لترجيح هذا القول.

وسلك العلامة محمد بن صالح العثيمين مسلكاً آخر فقال: أكثر العلماء يقولون: إنها للتشبيه، وهؤلاء فتحوا على أنفسهم إيراداً يحتاجون إلى الجواب عنه، وذلك بأن القاعدة أن المُشبَّه دون المُشبَّه به، وعلى هذا؛ فأنت سألت الله صلاةً على محمَّد وآله دون الصَّلاة على آل إبراهيم؟ ومعلومٌ أنَّ محمداً وآله أفضل من إبراهيم وآله، فلذلك حصل الإشكال؛ لأن هذا يعارض القاعدة المتفق عليها وهي: أن المشبَّه أدنى من المشبَّه به. وأجابوا عن ذلك بأجوبة. فقال بعض العلماء: إن آل إبراهيم يدخل فيهم محمَّد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، لأنه من آله، فإبراهيم أبوه، فكأنه سُئل للرسول عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الصَّلاة مرَّتين، مرَّة باعتبار الخصوص «اللهم صَلِّ على محمَّد»، ومرَّة باعتبار العموم «كما صَلَّيت على آل إبراهيم» ولكن هذا جواب فيه شيء، وليس بواضح. وقال بعض العلماء: إنها للتعليل - أي: الكاف - وأنَّ هذا من باب التوسُّل بفعل الله السابق؛ لتحقيق الفعل اللاحق، يعني: كما أنك سبحانك سَبَقَ الفضلُ منك على آل إبراهيم؛ فألحِق الفضلَ منك على محمد وآله، وهذا لا يلزم أن يكون هناك مشبَّه ومشبَّه به.

فإن قال قائل: وهل تأتي الكاف للتعليل؟

قلنا: نعم، تأتي للتعليل، استمعْ إليها من كلام العلماء، واستمعْ إلى مثالها.

قال ابن مالك:

شَبِّه بكافٍ وبها التَّعليل
قد يُعنى وزائداً لتوكيد وَرَدْ

فأفاد بقوله: «وبها التعليل قد يُعنى» أنه قد يُقصد بها التعليل. وأمَّا المثال فكقوله تعالى: «﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ﴾» (البقرة: ١٥١) فإن الكاف هنا للتعليل لما سبق.

وكقوله تعالى: «﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾» (البقرة: ١٩٨) أي: لهدايتكم، وإن كان يجوز فيها التشبيه، يعني: واذكروه الذِّكرَ الذي هداكم إليه. فهذا القول - أعني: أنَّ الكاف في قوله: «كما صَلَّيت» للتعليل من باب التوسل بالفعل السابق إلى تحقيق اللاحق - هو القول الأصحُّ الذي لا يَرِدُ عليه إشكال. الشرح الممتع على زاد المستقنع ٣/ ٦٠.

المسألة الثالثة: من الملحوظ أن عامة الأحاديث في الصحاح والسنن كما ذكرنا أولاً بالاقتصار على الآل، أو إبراهيم في الموضعين، أو الآل في أحدهما وإبراهيم في الآخر، فحيث جاء ذكر إبراهيم وحده في الموضعين فلأنه الأصل في الصلاة المخبر بها، وآله تبع له فيها، فدل ذكر المتبوع على التابع، واندرج فيه، وأغنى عن ذكره. وحيث جاء ذكر آله فقط فلأنه داخل في آله كما تقدم تقريره، فيكون ذكر آل إبراهيم مغنياً عن ذكره، وذكر آله بلفظين، وحيث جاء في أحدهما ذكره فقط وفي الآخر ذكر آله فقط كان ذلك جمعاً بين الأمرين، فيكون قد ذكر المتبوع الذي هو الأصل، وذكر أتباعه بلفظ يدخل هو فيهم.

قال (شيخ الإسلام): (ولهذا جاء في أكثر الألفاظ: (كما صليت على آل إبراهيم) و (كما باركت على آل إبراهيم) وجاء في بعضها: (إبراهيم) نفسه لأنه هو الأصل في الصلاة والزكاة وسائر أهل بيته إنما يحصل ذلك تبعاً وجاء في بعضها ذكر هذا وهذا تنبيها على هذين) (جلاء الأفهام- ابن قيم الجوزية ١/ ٢٩٦).

المسألة الرابعة: هل يجوز تلفيق صيغة

صلاة واحدة من مجموع هذه الصيغ؟

قال الإمام النووي: ينبغي أن تجمع ما في الأحاديث الصحيحة فتقول اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. المجموع ٤٦٦/٣.

وقال الإمام العراقي: بقي عليه مما في الأحاديث الصحيحة ألفاظ أخر وهي خمسة يجمعها قولك اللهم صل على محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آل محمد وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد انتهى وهذه الزيادات التي ذكرها العراقي ثابتة في أحاديث الباب التي ذكرها ابن تيمية في المنتقى (عون المعبود- العظيم آبادي).

وقال الإمام ابن القيم: قاعدة في هذه الدعوات والأذكار التي رويت بأنواع مختلفة كأنواع الاستفتاحات وأنواع التشهدات في الصلاة وأنواع الأدعية التي اختلفت ألفاظها وأنواع الأذكار بعد الاعتدالين من الركوع والسجود

ومنه هذه الألفاظ التي رويت في الصلاة على النبي. وقد سلك بعض المتأخرين في ذلك طريقة في بعضها وهو أن الداعي يستحب له أن يجمع بين تلك الألفاظ المختلفة ورأى ذلك أفضل ما يقال فيها.

قالوا ليصيب ألفاظ النبي يقيناً فيما شك فيه الراوي ولتجتمع له الأدعية الأخر فيما اختلفت ألفاظها

ونازعهم في ذلك آخرون وقالوا هذا ضعيف من وجوه:

أحدها: أن هذه طريقة محدثة لم يسبق إليها أحد من الأئمة المعروفين.

الثاني: أن صاحبها إن طردها لزمه أن يستحب للمصلي أن يستفتح بجميع أنواع الاستفتاحات وأن يتشهد بجميع أنواع التشهدات وأن يقول في ركوعه وسجوده جميع الأذكار الواردة فيه وهذا باطل قطعا فإنه خلاف عمل الناس ولم يستحبه أحد من أهل العلم وهو بدعة وإن لم يطردها تناقض وفرق بين متماثلين.

الثالث: أن صاحبها ينبغي له أن يستحب للمصلي والتالي أن يجمع بين القراءات المتنوعة في التلاوة في الصلاة وخارجها قالوا: ومعلوم أن المسلمين متفقون على أنه لا يستحب ذلك للقارئ في الصلاة ولا خارجها إذا قرأ قراءة عبادة وتدبر وكذلك في الاستفتاح إن شاء استفتح بحديث علي وإن شاء بحديث أبي هريرة ، وإن شاء باستفتاح عمر رضي الله عنهم أجمعين وإن شاء فعل هذا مرة وهذا مرة وهذا مرة وقد احتج غير واحد من الأئمة منهم الشافعي على جواز الأنواع المأثورة في التشهدات ونحوها بالحديث الذي رواه أصحاب الصحيح والسنن وغيرهم عن النبي أنه قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف فجوز النبي القراءة بكل حرف من تلك الأحرف وأخبر أنه شاف كاف ومعلوم أن المشروع في ذلك أن يقرأ بتلك الأحرف على سبيل البدل لا على سبيل الجمع كما كان الصحابة يفعلون.

الرابع: أن النبي لم يجمع بين تلك الألفاظ المختلفة في آن واحد بل إما أن يكون قال هذا مرة وهذا مرة كألفاظ الاستفتاح والتشهد وغيرها فاتباعه يقتضي أن لا يجمع بينها بل يقال هذا مرة وهذا مرة، والله تعالى أعلم.(جلاء الأفهام- ابن قيم الجوزية ٢٩٦/١).

وقال العلامة الألباني: "واعلم أنه لا يشرع تلفيق صيغة صلاة واحدة من مجموع هذه الصيغ وكذلك يقال في صيغ التشهد المتقدمة بل ذلك بدعة في الدين، إنما السنة أن يقول هذا تارة وهذا تارة" (صفة الصلاة- الألباني).

وللحديث بقية إن شاء الله،

والحمد لله رب العالمين.


الآن
المجلد الجديد لمجلة التوحيد
التوحيد
رئيس التحرير
جمال سعد حاتم
موسوعة علمية
لا يخلو منها مكتبة
ويحتاج إليها
كل بيت
١٤٣٥هـ
سارع بحجز
نسختك من
المجلد الجديد
23936517


بشرى سارة
معرض مجلدات مجلة التوحيد
مفاجأة كبرى
موسوعة مجلة التوحيد (كرتونة المجلدات ٤٤ سنة كاملة بـ٥٥٠ جنيهاً بدلاً من ٨٥٠ جنيهاً)
مفاجأة :
اشتراك سنة مجانا بمجلة التوحيد لمن يشتري الموسوعة.
الكمية محدودة والعرض سار حتى نفاد الكمية.
مفاجأة :
يمكنك الدفع عند الاستلام عن طريق مكتب الشحن.
ويمكنك الشراء وإرسال الكرتونة على عنوانك عن طريق مكتب الشحن.
التوحيد
أوسع المجلات الإسلامية انتشاراً في العالم
٤٤ مجلداً
٤٤ عاماً
المعرض مفتوح يوميًا بالدور السابع بالمجلة
للاستفسار يرجى الاتصال بقسم الاشتراكات بمجلة التوحيد: 23936517
صدر حديثاً المجلد الجديد لعام ١٤٣٦ هـ